إرشادُ الظَّمآن

إلى

معاني قلبِ القرآن

(تفسيرٌ مُيَسَّر لسورة يس)

تأليف الشيخ الأخضر الدهمة

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية

حقوق الطبع محفوظة

طبع : المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية
الهاتف / فاكس : (029) 88. 36. 53
المنطقة الصناعية : (029) 87. 34. 34
Imprimerie.El-Arabia@caramail.com

الإيداع القانوني رقم 2005/ 499
ردمك I.S.B.N 9961 -787-46- 3

الإهـــداء

۞ إلى روح والدي الذي يسَّر لي سبيل العلم، ووفَّر لي أسباب تحصيله.

۞ وإلى أرواح شيوخي الأَكْفَاء الذين اجتهدوا في تكوين تلامذتهم.

۞ وإلى أرواح إخواننا الذين استشهدوا في سبيل الله

۞ وإلى أبـــنائي الطلاب الذين ضمَّتهم إليَّ الحلقات العلمية في وادي متليلي الشعانبة ووادي ميزاب، تحت سماء المَوَدَّة الصافية المتبادلة ...

۞ وإلى الجمهور المتجاوب معي في الدعوة إلى الله، والمهتم غاية الاهتمام بما أوجهه إليه من سبل الخير.

۞ وإلى كل من تجمعني وإياهم عقيدة الإسلام في الأرض.

أهدي إنتاجي الفكري هذا وغيره اعترافا بفضل المحسنين، وتقديرا لولاء الموالين.

والحمد لله أولاً وآخرا.

مُقَدِّمَة

الحمـــد لمـــن خلق الأرض والسماوات العلي، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أمـــا بعد: فإن أولى كتابٍ بالفهم والتفهُّم والتَّفهيم هو كتاب الله الهادي إلى الحق و إلى طريق مستقيم، العاصم من الضلال المبين ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء 9]، أي إن كتاب الله هذا يرشد المتمسكين به إلى الطريق التي هي أصوب في كل مجال من مجالات الحياة الدينية والدنيوية.

وبـــالعمل وفقـــه، ووفق سنة من أنزل عليه كانت الأمة الإسلامية خير الأمـــم، وستظل على هذه الخيرية إن شاء الله مادامت محافظة على شروطها؛ من أمـــر بمعروف، ونهي عن منكر نابعين من إيمان خالص ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران 110].

وبمـــا أن هـــذه الأمـــة –بعدقرونها الزاهرة– أصيبت إصابات بالغة في مكونـــات شخصـــيتها المتميزة من لغة وعقيدة وشريعة نتيجة لاحتلال الأعداء أوطانهـــا، واســـتيلاء عوامل الانحطاط على عقول أبنائها أمست على حرف من شريعة ربها التي شرفها بحملها، وكان من لطف الله بها أن هيأ لها في كل فترة من فترات تاريخها علماء أجلاّء لا يخشون في الله لومة لائم يدأبون في اجتذابها إلى ما صلح به أولها كما قال الإمام مالك –**رضي الله عنه**– (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها).

ومعلـــوم أن أولهـــا إنما صلح باستمساكه الواعي بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله ﷺ وما احتوياه من توجيه قيِّم، وتشريع سديد، ووعظ بليغ، وتثقيف رشيد.

وبدهـــي أن الـــتأثر بما يسمع ويقرأ لا يحصل إلا بفهم ما يقال ويكتب واستكناه ما يُقدَّم ويُعرض.

من أجل ذلك انبرى علماء كل عصر إلى كتاب الله –تعالى– يفـــسرونه للناس، وإلى سنـــة نبيه ﷺ يشرحونها لهم، وينشرون حقائق الإسلام نافين عنها ما طرأ عليها من زيـــف وتحريف وتخريف.

ومن هؤلاء المفسرين من أطنب في البحث والاستقصاء حتى جاوز الحد المعقـــول، ومـــنهم من التزم القصد المقبول، منهم من أمدَّ الله في عمره حتى أتم تفسيره كله، ومنهم من عاجله الموت فترك بعضه، ومنهم من اقتصر على سُوَر أو آيات منه، والله المسئول أن يجـــازي كلا منهم بما هو أهله.

وإني إذ سلكني الله في قائمة الخادمين لكتابه أشكره أن أعانني على إتمام تفســـير قصار المفصل المسمى ((قطوف دانية من آيات قرآنية)) ط2 .ثم تفسير سورة الآداب والأخلاق المسمى ((أضواء على سورة الحجرات)) وهاأنـــذا أفرغ من تفسير سورة يس التي سماها النبي ﷺ قلب القرآن لأقدمها للطبع. وقد توخيت فيها ما توخيته في أخواتها من تقريب وتجلية وتحليل.

وعـــلى سبيل التجاوب مع رغبات بعض المعلمين والأساتذة الذين كانوا يشـــرفونني بالحضور إلى دروسي الشفوية أو بقراءة كتبي المؤلفة، ثم يصارحونني بـــأنهم قـــد استحســـنوا وانتفعوا باستعمال بعض قواعد النحو لتوضيح المعاني، وتطويعهـــا للتصور السليم. فقد لبيت ما رغبوا فيه –باختصار دائما– دون أن يخرجني ذلك من اعتبار القرآن الكريم كتاب هداية لا كتاب علوم مختلفة.

وعصـــما لمـــن لم يســـبق له استظهار القرآن الكريم أن يخطئ في قراءته تعمدت رسم الآيات على وفق ما انتهى إليه علم قواعد الإملاء في العصور

الحديثة، وهو ما أفتى بجوازه جمع من أهل العلم في كتابة غير المصحف الشريف.

وقد سجل الدكتور وهبه الزحيلي فتوى بهذا الشأن لبعض علماء الأزهر في كتابه: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج جـ. 1 ص 25 .

نصهـــا:

وقـد رأت لجنة الفتوى بالأزهر وغيرها من علماء العصر الوقوف عند المـأثور مـن كـتابة المصحف احتياطـًا لبقاء القرآن على أصله لفظًا وكتابة، وحفاظا على طريقة كتابته في العصور الإسلامية السابقة دون أن ينقل عن أحد من أئمة الاجتهاد تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولاً. ولمعرفة القراءة المقبولة والمردودة فلا يفتح فيه باب الاستحسان الذي يعرض القرآن للتغيير والتحريف أو للتلاعـب بـه أو العبث بآياته من ناحية الكتابة. لكن لا مانع في رأي جماهير العـلماء من كتابة القرآن بطرق الإملاء الحديثة في مجال الدرس والتعليم، أو عند الاستشـهاد بآيات أو أكثر في بعض المؤلفات الحديثة، أو في كتب وزارة التربية والتعليم، أو أثناء عرضه على شاشة التلفاز . انتهى

وأخـيرا أضـرع إلى الله عز وجل أن يجعل النفع بهذا الكتاب في ميزان حسناتي ضمن صالح أعمالي، إنه قريب مجيب.

متليلي في محرم 1426 هـ الموافق لـ فبراير 2005

سورة يـــس

سميـــت بهذا الاسم لتصديرها بذينك الحرفين: الياء والسين، وهي مكية. وعدد آياتها اثنتان وثمانون.

فضلهـــا:

مما ورد في فضلها ما رواه الحافظ البزار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي).

ومـــا رواه الترمذي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يـــس).

وما رواه الإمام أحمد عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ:(اقرءوها على موتاكم).

قـــال الإمام أحمد –رحمه الله– كان المشيخة يقولون إذا قرئت على الميت خفَّف الله عنه بها.

تنبـــيـــه:

قـــال العلماء: ليـــس المراد بالموتى في الحديث الشريف الذين خرجت أرواحهـــم من أجسادهم، وإنما هم الذين أشرفوا على الموت، لعل الله –تعالى– يخفـــف عنهم شدة النزع ببركاتها (وهو ما يفهم من كلام الإمام أحمد السابق) ولعلهم –أيضا– يتعظون بما يسمعون فيها من آيات تتحدث عن البعث والنشور والجنة والنار فيستغفرون الله –تعالى– ويرجون ثوابه ويتعوذون به من عقوبته.

أحكام فقهيـــة:

يسأل بعض المسلمين عن حكم قراءة يـــس أو القرآن كله على الميت في مقـــابل أجرة؟ وقد أفتى الفقهاء بأن ذلك حرام إذ ينبني عليه بيع كلام الله بثمن بخس، ومن ثمّ لا ينتفع الميت بقراءته.

أما قراءة القرآن بإخلاص والدعاء بعدها للميت فقد أفتوا بانتفاعه بها لأن التوسل إلى الله بالقرآن الكريم من التوسلات الشرعية التي يتحقق بها المراد إن شاء الله. والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(1)إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(2)عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(3)تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(4)﴾.

التفـــســـيـــر:

حيـــنما تستعرض القرآن الكريم نرى بعـــض سوره قد افتتحت بحروف هجائية مقطعة، منها ما هو مفتتح بحرف واحد مثل: ص –ق – ن، ومنها ما هو مفتـــتح بحرفين مثل: يس، حم، طس، ومنها ما هو مفتتح بثلاثة مثل: الم، الر، طسم، ومنها ما هو مفتتح بأربعة مثل: المر – المص – ومنها ما هو مفتتح بخمسة مثل: كهيعص–حم عسق.

وعـــدد الحـــروف التي افتتحت بها تلك السور أربعة عشر وهي نصف الحروف الهجائية الثمانية والعشرين التي تتكون منها اللغة العربية.

ولا شك أن ذكرها في أوائل السور يرمز إلى حكمة، وما هي تلك الحكمة؟

اختلف علماؤنا إزاءها، فعلماء السلف يرون أن الله–تعالى– قد استأثر

بعلمها، ومن ثم قالوا: الله أعلم بمراده منها.

وعلماء الخلف يرون أن لا بأس بالاجتهاد في استكناه تلك الحكمة، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وأنا -هنا- أكتفي بما رجحه العلماء المحققون وهو ما تطمئن إليه النفس، وتتلقاه بالقبول مع تفويض العلم بسرها إلى مترِّلها.

قالوا: إنها تنبيه إلى إعجاز القرآن، من حيث إن كلام العرب مؤلف من الحروف الهجائية التي يعرفونها والقرآن الكريم نزل بلغتهم المركبة من تلك الحروف ومع ذلك تحداهم الله -عز وجل- أن يأتوا بمثله في نظمه وأسلوبه ومعانيه فعجزوا عن ذلك كل العجز مع أنهم بلغوا يومئذ منتهى الفصاحة والبلاغة وإنا لنقرأ في سورة الإسراء تحديهم بمثله: ﴿ **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ 88.

وفي سورة هود تحديهم بعشر سور مثله مفتريات: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾.الآيتان 13-14.

وفي سورة البقرة تحديهم بسورة واحدة من مثله: ﴿ **وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ الآيتان: 23-24.

﴿**وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾.

الواو: واو القسم. و القرآن مقسم به.

وقد أقسم الله به تنبيها على فضله، وشرف قدره.

والحكـــيم: يحتمل أن يكون بمعنى المحكم يعني المتقن الذي لا نظير له في إبداعه، كما قال ﷻ في مطلع سورة هود: ﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَـــدُنْ حَكِـــيمٍ خَبِيرٍ**﴾. كما يحتمل أن يكون معناه: المشتمل على الحكمة فهو كـــالحي الـــذي ينطق بالحكمة، وبدهي أن ما اشتمل عليه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق هي عين الصواب، وخير هدي للعباد.

﴿**إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ**﴾.

هذه الآية جواب القسم المذكور في الآية السابقـــة، وكاف الخطاب يراد به نبينا محمد ﷺ. والمراد بالمرسلين: الرجال الذين اصطفاهم الله ﷻ ليبلغوا وحيه المنزَّل عليهم إلى عباده.

والمعـــنى: أن الله ﷻ أقسم بالقرآن الحكيم على أن محمدا ﷺ من جملة المرسلين الذين أرسلهم إلى الأمم الماضية.

وهل كان سيدنا محمدﷺ يشك في أنه رسول الله كبقية الرسل السابقين حتى يؤكد الله له هذه الحقيقة بتلك المؤكدات، وهي: القسم وإنَّ واللام الداخلة على خبر إن؟

والجـــواب: أن النبي ﷺ لم يشك في رسالته الإلهية للعالمين، ودليل ذلك قوله ﷺ: (لا أشك ولا أسأل)، حينما أمره ربه بأن يسأل أهل الكتاب إن كان شاكا فيما يتزله عليه، وهو ما نقرأه في الآيتين (94-95) من سورة يونس: ﴿**فَإِنْ كُنْـــتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَـــقُّ مِـــنْ رَبِّـــكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ**﴾.

ولكنَّ الله الرءوف بعبده أراد أن يؤنس قلبه بذلك وأن يثبته في المعركة

القائمة بين التوحيد والشرك وأن يردّ في الوقت نفسه على المشركين الذين كانوا يكذبونه، ويطعنون في نبوته ورسالته.

ومما ذكره الله من أقاويلهم فيه ما جاء في سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾43.

وما جاء في سورة سبأ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ 43.

ونظير هذه الآية قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ 252 .

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

المعنى اللغوي: للصراط المستقيم أنه الطريق السوي وهو مستعمل في القرآن الكريم استعمالا مجازيا يقصد به الإسلام وما يتضمنه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، تشبيها للسائر وفق الشريعة الإسلامية بالسائر على طريق مستقيم؛ من حيث إن كلا منهما يتحقق وصوله إلى مراده دون عناء أو تردد.

واستعمال حرف الجر (على) الدال على الاستعلاء يفيد أن الرسول ﷺ متمكن من الصواب وسلامة الاتجاه تمكن الفارس من صهوة جواده.

ونظير هذه الآية قوله في سورة الشورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ 52-53.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

تنزيل: مصدر: نزل-ينزل. والمراد به الوحي المنزل من الله، وهو القرآن الكريم.

وعبر عنه بالمصدر على سبيل المبالغة.

ويقـــرأ بالرفع على رواية ورش وقالون عن نافع لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو؛ أي القرآن المفهوم من سياق الكلام.

كمـــا يقـــرأ بالنصـــب على رواية حفص عن عاصم لأنه مفعول لفعل محذوف، تقديره: أعني.

و(العزيز) : ذو العزة والسلطان والغلبة.

و(الرحيم) : ذو الرحمة واللطف بعباده .

وهما من أسماء الله الحسنى. وإذا كان في الأول منهما ترهيب للكافرين ففي الثاني طمأنة للمؤمنين بأنهم في كنف الله ورعايته.

وقـــد أكد الله ﷻ في غير ما آية من كتابه العزيز أن هذا القرآن منزل من عنده، وليس من عند محمد ﷺ ولا من عند غيره من البشر.

مـــن ذلك ما نقرؤه في سورة الشعراء:﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الـرُّوحُ الْـأَمِينُ عَلَـى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**﴾ 92-96.

وفي ســـورة الحاقة: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُـــولٍ كَـــرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ 38 ...43.

وفي هذه الآية من سورة يـــــس، وفي الآيات المستشهد بها وفي غيرها من الآيات المشابهة لها رد على المشركين الذين كانوا يقولون عن القرآن إنه شعر أو كهانة أو سحر أو افتراء أو أساطير الأولين أو أضغات أحلام.

قوله تعالى:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(5)﴾

الـــلام في (لتنذر) لام التعليل، فقد عللت إرسال سيدنا محمد ﷺ إلى قومه بإنذارهم وتهديدهم بعذاب الله إن هم أصروا على شركهم وعنادهم.

و(تـــنذر): فعـــل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ماضيه: أنذر، ومصدره الإنذار. وهو الإخبار بما فيه تخويف للسامع.

و(مـــا) نافية، فقد نفت إرسال رسول إلى آبائهم والمراد بآبائهم الأقربون منهم إليهم وإلا فإن آباءهم الأبعدين كانوا على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام.

والفـــاء في جملـــة (فهم غافلون) تفريعية؛ فقد فرعت غفلتهم على عدم إرسال رسول إليهم.

وعـــن أي شـــيء كانوا غافلين؟ كانوا غافلين عن الدين الصحيح الذي يعبدون الله بمقتضاه؛ ذلك الدِّين الذي أرسل الله به رسوله إبراهيم فلزمه آباؤهم الأولون، ولما طال عليهم الأمد بدءوا يستكينون لوساوس الشياطين الذين انحرفوا بهم عن ملَّة إبراهيم المبنية على توحيد الألوهية، وزيَّنوا لهم اتخاذ آلهة يعبدونها من دون الله أو مع الله، كما جاء في الحديث القدسي الشريف: (إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم أي أضلتهم وحرفتهم عنه).

ولمـــا استبدت الشياطين بالناس فأخذ الشرك منهم كلَّ مأخذ، وفسدت أخلاقهـــم، وانحطـــت مداركهم تداركهم الله بلطفه، فأرسل إليهم رسولا من أنفســـهم ينذرهم بعاقبة الإشراك بالله وهي النار، وبئس المصير. ونظير هذه الآية قولـــه -تعالى- في سورة السجدة : ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾3.

ويمكـــن أن يطرح هنا سؤال: هل إنذار النبي ﷺ بالقرآن خاص بالقوم الذين كانوا في زمنه؟

والجواب أن كل قوم في أي زمن وصلهم شرع الله فهم ملزمون باتباعه، وهـــو حجة عليهم كما كان حجة على من قبلهم، ويصدق عليهم أن النبي ﷺ أنذرهـــم وبلَّغهم ما أرسل به إليهم. كما قال–تعالى- في سورة الأنعام:﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ 19. أي من بلغه ووصل إليه، يعني القرآن.

ومما يؤسف له أن المسلمين أصابهم –على مرِّ العصور- نوع من الغفلة عن دينهم القويم كما أصابت الأولين.

ومن مظاهر تلك الغفلة التوجه إلى غير الله فيما لا يملكه إلا الله، وتقديم شريعة العباد على شريعة رب العباد، وتقديس ما لا يستحق التقديس، والتقرب إلى الله بمـــا لم يشـــرعه لعباده، والزهد في السنن النبوية، وإعلان البدع المحدثة، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى:

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(6)﴾

(حقَّ القولُ) : ثبت وتقرر.

والقـــول: قـــول الله تعالى: ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾. كما هو منصـــوص عليه في سورة السجدة: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَـــوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾13.وفي سورة ص: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾83.

واللام في (لقد حق القول) لام القسم (لتأكيد معنى الكلام).

والفاء في جملة (فهم لا يؤمنون) تفريعية؛ فقد فرعت ورتبت عدم إيمان أكثرهم

عـــلى ما سبق في علم الله أنهم يختارون طريق النار، وما سبق في علم الله ﷻ لا بد أن يتحقق.

قوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ(7)﴾

(الأغـــلال) جمع تكسير، مفرده: غُل بضم الغين، وهو حلقة عريضة من حديـــد يطوق بها عنق الأسير أو المجرم، وعند طرفيها من الأمام قضيب في رأسه كويـــرة تلتصق بذقنه، وتضم يداه مربوطتين إلى الحلقة، فلا يستطيع أن يطأطئ رأسه ولا أن يلتفت يمينا ولا شمالا.

يقـــال في اللغة: غله –يغله– غَلا (بفتح الغين)، أما الغِل (بكسر الغين) فهو الحقد، ومن ذلك قوله –تعالى– في سورة الحشر: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا**﴾الآية:10. ويطلق الغَل (بفتح الغين) والغلول على الأخذ من غنيمة الحـــرب خلسة قبل أن تقسم على المجاهدين. وقاس الفقهاء عليها الاختلاس من المـــال العـــام، ومن ذلك قولـــه في سورة آل عمران: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾161.

(الأذقان): جمعٌ واحده: ذقن (بفتح الذال والقاف) وهو مجمع اللحيين أي الفكين من أسفلهما.

(مقمحون): اسم مفعول مصوغ من أقمح الرباعي.

يقال: أقمح الغل الرجل إذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه ومن ذلك قول العرب: قمح البعير وتقمح وانقمح إذا رفع رأسه، وامتنع عن الشرب ريا أي ارتواء من الماء.

وضمير الرفع (هي) عائد إلى الأغلال أو إلى الأيدي، ولو لم يسبق لها ذكر، لأن من شأن الأغلال أن تربط إليها الأيدي.

والجار والمجرور (إلى الأذقان) يتعلقان بمحذوف هو خبر المبتدأ الذي هو (هي). وتقديـــر الكـــلام: هي واصلة أو منتهية إلى الأذقان. والفاء في فهم (مقمحون) تفريعية؛ فقد فرعت الإقماح على جعل الأغلال في الأعناق.

معنى الآيـــة:

تمثـــيل لحال من يشمخون بأنوفهم، ويستكبرون عن قبول الحق بحال من جعلـــت الأغلال في أعناقهم فارتفعت رؤوسهم قسرا إلى أعلى؛ فأولئك منعهم الكِبْر من التفكير فيما عرض عليهم من صلاح، وهؤلاء منعتهم الأغلال الحسية من النظر فيما حولهم والاستفادة مما يحيط بهم.

وإمعاناً في إفادتك أيها الأخ القارئ أنبهك إلى أن القرآن الكريم استعمل الأغلال أيضا تمثيلا للشدائد، كقوله –تعالى– في سورة الأعراف في معرض تعداد الـــنعم التي أنعم بها على بني إسرائيل بواسطة نبيه سيدنا محمد ﷺ **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** 157.

والإصـــر: الحمـــل الثقيل، والأغلال التي كانت عليهم هي تحريم العمل عليهم يوم السبت، وتحريم كل ذي ظفر، وتحريم شحوم البقر، وإذا أصابت ثوب أحدهم نجاسة فإنه لا يطهر إلا بقطع المكان المتنجس منه، ووجوب القصاص على القاتل دون قبول الدية منه، وتحريم الغنيمة عليهم.

كمـــا استعمل الأغلال –أيضا– تمثيلا للشح، كما جاء في سورة الإسراء: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾** 29.

وفي ســـورة المـــائدة: **﴿ وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**64.

وإذا كانت الأغلال في الأعناق تمثيلا لحال المستكبرين الرافضين للحق في الدنـــيا فإنها في الدار الآخرة حقيقة واقعة لا محالة، يدلنا على ذلك قوله ﷻ في سورة سبأ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾33.

وقولـــه ﷻ في ســـورة غافر: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ 70 ...72.

وقولـــه ﷻ في سورة الحاقة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾30-32.

قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(8)﴾

السدّ: الحاجز بين شيئين، ويُقرأ في الآية بضم السين على رواية ورش وقالون عن نافع، وبفتحها على رواية حفص عن عاصم.

أغشيناهم: جعلنا على أبصارهم غشاوة، أي غطاء يمنعهم عن الرؤية .

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ 6. وهي غشاوة معنوية.

و المعـــنى أن الله ﷻ شـــبَّه حـــال الذين حرمهم من الهداية بحال الذين حُصروا بين سدَّيْن وغُطِّيت عيُونهم.

وهـــل ظلمهم الله بحرمانهم من الهداية؟ كلا. وحاش لله أن يظلم أحدا، ولكن الـــناس يظلمون أنفسهم برفض الحق الذي جاءهم من عند خالقهم على لسان رسوله إلـــيهم، وقد يعترفون به في قرارة نفوسهم، ولكنهم ينكرونه بألسنتهم تكبرا واستعلاء وتمســـكا بمكانـــتهم الاجتماعـــية وحفاظا على امتيازاتهم الدنيوية، كما قال ﷻ في

أمثالهم:﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(13)وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(14) ﴾ النمل.

ومن الأمثلة الصريحة الواضحة في واقع الناس التي تكشف عن جحود الحق باللسان، و استيقانه بالجنان ما رواه ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن شهاب عن الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، و أبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه، و كل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعهم الطريق تلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا،حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا

فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفَرَسَيْ رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه فقام عنه الأخنس وتركه.

قوله تعالى:

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(9)﴾

الهمزة الأولى في (ءانذرتهم) للاستفهام، والهمزة الثانية من بنية الكلمة، إذ الأصل أأنذرتهم فقلبت الهمزة الثانية مدًّا على رواية ورش، وسهلت على رواية قالون، وبقيت على أصلها في رواية حفص.

و(أم) الواقعة بعد الهمزة تفيد التسوية بين ما قبلها وما بعدها (والتسوية هنا بين الإنذار وعدمه) المسبوكين من الفعلين أي سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك.

ومن حيث الإعراب: سواء: خبر مقدم، وإنذارك: مبتدأ مؤخر والكاف مضاف إليه. والتقدير: إنذارك وعدمه سواء .

ومن أمثلة (أم) التي تفيد التسوية مع همزة الاستفهام قوله ﷻ في سورة الشعراء حكاية لمقالة عادٍ لنبيها هود: ﴿سواءٌ عَلَينا أوعَظْتَ أم لم تكُن من الوَاعظين﴾ أي وعظك وعدمه سيان عندنا .

فالمصدر المسبوك من وعظ: مبتدأ خبره سواء .

وهذه الآية كالنتيجة لما قبلها، أي عدم انتفاعهم بالإنذار ناتج عن استحبابهم للعمى على الهدى ورفضهم للحق الذي استيقنوه بقلوبهم وجحدوه بألسنتهم.

فقد كانت الآيات تُتلى عليهم فيعرضون عنها، ويصدون غيرهم عن الاستماع إليها كما قال الله ﷻ في سورة فصلت: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(26)﴾**

ومما يروى في هذا المقام عن عبد الله بن أبي قبل أن ينافق أن رسول الله ﷺ مرَّ ذات يوم على جماعة فيهم عبد الله بن أبي، فسلَّم عليهم، ثم قرأ آيات من القرآن الكريم، فقال له عبد الله: يا هذا إنه لا أحسن من كلامك إن كان حقا! فاجلس في بيتك، فمن جاءك فحدثه، ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه[1].

وجملة (لا يؤمنون) التي تنفي الإيمان عنهم هي توكيد لعدم انتفاعهم بالإنذار المذكور قبلها.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من المشركين.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(10)﴾

الذكر) المراد بالذكر –هنا– القرآن العظيم قال الله ﷻ في سورة الحجر: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)﴾**

واتباع الذكر: الخضوع لأحكامه، والانتفاع بتوجيهاته.

و(إنما) أداة تفيد الحصر أو القصر، أي الانتفاع بإنذارك –أيها الرسول– محصور في المؤمنين الذين التزموا بالعمل وفق كتابه العزيز، وخشوا الرحمن بالغيب.

وخشي:بمعنى :خاف و(الرحمن) اسم من أسماء الله الحسنى و(الغيب):ما غاب عنك.

وخشية الرحمن بالغيب تصدق بخوف العبد من الله مع أنه لا يراه، أو بخوفه منه في حال خلوته بحيث لا يطلع عليه أحد.

ونظير هذه الآية قوله –تعالى– في سورة الملك: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(12)﴾**

---

[1]– أي: فلا تُؤذه.

وخشـــية الـــرحمن بالغيـــب دليل على إخلاص العبادة للمعبود وهو مقام الإحسان الوارد في الحديث الشريف المشهور الذي أجاب به النبي ﷺ جبريل عليه السلام حين سأله عنه: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وقـــد تكررت في القرآن الكريم الآيات الدالة على أن الإنذار لا ينتفع به إلا المؤمنون المتقون الذين يخشون الله ﷻ.

مـــن ذلـــك قوله ﷻ في سورة فاطر: ﴿**إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...**﴾ **18**.

وقوله ﷻ في سورة النازعات: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا(45)**﴾ وفي سورة ق: ﴿**فذكِّر بالقرآن من يَّخافُ وعيدي** ﴾ 45.

والذي اتبع ما في القرآن، وخشي الله بالغيب يتشوق إلى معرفة جزائه عند ربه فجاءته البشرى تحملها الجملة الأخيرة من الآية: ﴿**فبشِّرهُ بمغفرَةٍ وأجرٍ كَبير** ﴾ والمغفرة تعني ستر ذنوبه وعدم المؤاخذة عليها .

والأجر الكريم: الجزاء الحسن الذي يشرف من يناله، والكرم المفهوم من صـــيغة (كريم)قد عرفه الراغب الأصفهاني بقوله: كل شيء يشرف في بابه فإنه يوصف بالكرم. قال ﷻ في سورة الشعراء﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم 6﴾. وفي ســـورة الدخان: ﴿...وزروع ومقام كريم ﴾ 25. وفي سورة الواقعة: ﴿إنه لقرآن كريم ﴾80، وفي سورة الإسراء: ﴿وقل لهما قولا كريما 23﴾.

قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(12)﴾

﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى** ﴾.

افتتحت الجملة بـــ(إن) المؤكدة، والضمير المنفصل نحن لتقوية مضمونها، وهو

إحـــياء الموتـــى، وهذا التوكيد اقتضاه إنكار العرب المشركين للحياة الثانية بعد المـــوت، وهو ما أخبر الله به عنهم في القرآن الكريم في غير ما آية، وأوعدهم من جرائه بالعذاب الشديد فقال مثلا في سورة سبأ: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَـــى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(8)**﴾ .

وقال في سورة التغابن: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(7)**﴾ .

والجزم بان الله ﷻ يحي الموتى في يوم القيامة من أركان الإيمان؛ فلا إيمان لمن لا يؤمن باليوم الآخر.

قال الله ﷻ في سورة النساء: ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(136)** ﴾

﴿**ونكتب ما قدموا وءاثارهم** ﴾

والكتابة المفهومة من (نكتب) معناها الإحصاء والضبط.

و (مـــا) اسم موصول بمعنى الذي و (قدموا) صلته، والضمير العائد إليه محذوف. وتقدير الكلام: ونكتب الذي قدموه .

وما هذا الذي قدمه الموتى؟ وسجل في صحائف أعمالهم؟ هو ما عملوه في الدنيا من حسنات وسيئات قبل موتهم ليجازوا عليه في الحياة الأخرى الأبدية، إن خـــيرا فخير، وإن شرا فشر. قال الله ﷻ في سورة فصلت: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(46)**﴾.

وهذه الحقيقة التي تضمنتها هذه الآية، وهي إحصاء أعمال الناس التي كانوا يعملونها في دنياهم ومجازاتهم عليها في آخرتهم قد تكررت في القرآن الكريم غير ما مرة.

مـــن ذلـــك قوله ﷻ في سورة الإسراء:﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14)﴾.

وقولـــه ﷻ في سورة الجاثية: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ(27)وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(28)هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(29)﴾

والمراد بآثارهم: ما خلفوه بعد موتهم مما يجلب لهم الخير أو الشر.

كعلم علموه، أوكتاب ألفوه، أو وقف أوقفوه، أو بناء في سبيل الله بنوه، أو بـــئر حفروه، أو شجر غرسوه وغير ذلك من أنواع الخير، أو كبدعة منكرة نشـــروها بـــين المسلمين، أو كتاب مضل للقارئين، أو ترسيخ عقيدة فاسدة في أذهـــان المتعلمين، أو الطعن في أعراض الطاهرات والطاهرين، أو سن قانون فيه انتهاك حرمة الإسلام و المسلمين و غير ذلك من الشرور.

روي عـــن رسول الله ﷺ أنه قال: (من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، و أجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن ســـن ســـنة سيئة كان عليه وزرها، و وزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء)) ثم تلا ﷺ ((... ونكتب ما قدموا وآثارهم)) .رواه مسلم.

وقال ﷺ :((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) رواه مسلم.

وجاء في سنن ابن ماجة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(إن ممـــا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه ،أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه

و صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته).

ومما يدخل في (آثارهم) خطاهم في فعل الخير كمشيهم إلى المساجد مثلا، كذلك خطاهم إلى فعل الشر كمشيهم إلى زرع الفتنة بين الناس مثلا.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال : يا بني سلمة ديارَكم تُكتب آثاركم ، ألا تحتسبون آثاركم ؟ فقالوا: يا رسول الله نحتسب، و لا يسرنا التحول)

وجاء في صحيح البخاري قوله ﷺ: (أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى).

ملاحظة: هل يفهم من هذا الحديث الشريف أن الرجل ينبغي له أن يتجاوز مسجده القريب إلى مسجد بعيد ليحصل له الأجر من آثار أقدامه الكثيرة؟ لا يفهم منه ذلك.

ومن العلماء الذين نفوا هذا الفهم الإمام مالك رضي الله عنه فقد قال: إنه لا ينبغي للمسلم أن يتجاوز المسجد القريب منه إلى مسجد بعيد .

أما إذا كان هذا التجاوز لغرض صحيح كوجود خلل في المسجد القريب من حيث انعدام كفاءة إمام المسجد القريب أو غير ذلك من النقائص فلا بأس التجاوز إلى مسجد بعيد يستفيد رواده من كفاءة إمامه أو مدرسه.

﴿ وكلَّ شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾

(كل) منصوب بفعل محذوف تقديره: أحصى أي أحصينا كل شيء. وحقيقة معنى (أحصى) عدَّ بالحصى أي حسب أشياء باستعمال الحصى التي هي صغار

الحجارة، فيئول إلى معنى حفظ وضبط وهو المراد هنا.

و(الإمام) -معناه العام- هو الذي يأتم به غيره، أي يتبعه ويقتدي به، سواء أكان من جنس الإنسان أم من غيره وسواء أكان اتباعه في الخير أم في الشر. وجمعه أئمة وعليه فالرسول ﷺ إمام لأن المسلمين يأتمون به والقرآن العظيم إمام للمسلمين والمسلمات، والعالم إمام للناس، والذي يتقدم ليصلي بالناس إمام، والمصحف العثماني إمام لجميع المصاحف التي كتبت وتكتب بعده، ولذلك يعبر عنه بالمصحف الإمام، ورئيس كل دولة هو إمام رعيته، والخيط الذي يمده البناء فوق الجدار ليستقيم به دور البناء إمام له. والطريق الذي يسلكه الناس ويتبعونه إمام.

ومن استعمالات القرآن الكريم للإمام بمعنى الطريق، قوله ﷻ في سورة الحجر: ﴿...وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ(79)﴾ .

وبمعنى الذين يؤتم بهم في الخير قوله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...**﴾72، في سورة الفرقان: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا(74)﴾. وبمعنى الذين يؤتم بهم في الشر قوله ﷻ في سورة القصص: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...**﴾ 41. ومن ذلك قوله ﷻ في سورة الإسراء: ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...** ﴾71.

وأخيرا يأتي (الإمام) بمعنى اللوح المحفوظ أو علم الله الأزلي وهو المراد في هذه الآية من سورة يس بمعنى أن الله -تعالى- أحصى وحفظ كل شيء من أمر المخلوقات وغيرها في لوح محفوظ كل ما فيه مبين أي واضح. والله أعلم.

ونظير هذه الآية قوله ﷻ في سورة الجن: ﴿**...وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا(28)**﴾ .

وقوله ﷻ في سورة الكهف: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49) ﴾ .

قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(12)إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(13)﴾

المناسبة:

ذكر الله ﷻ قبل هذه القصة أحوال المشركين في مكة حين أرسل إليهم رسولا هو سيدنا محمد بن عبد الله فكذبوه وآذوه، ورفضوا الانصياع لما جاءهم به من عند الله، فناسب أن يذكر لهم قصة قوم كانوا مشركين مثلهم فأرسل إليهم رسلا فكذبوهم وآذوهم وعكفوا على شركهم فأهلكهم الله.

شرح الألفاظ:

الضمير المستتر في (اضرب) عائد إلى رسول الله ﷺ، والضمير المتصل في (لهم) عائد إلى مشركي قريش، ومن ورائهم مشركو العرب.

(المثل) جملة من الكلام تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير.

ومنه المثل السائر (الصيفَ ضيعتِ اللبن)

المراد بالمثل –هنا– صفة لقوم مضوا في التاريخ تشبه صفة لمشركي مكة.

وضرب المثل:ذكره للسامع ليتعظ به، وجمعه: أمثال؛ولما للأمثال من تأثير في نفوس السامعين ضربها الله ﷻ للناس في القرآن الكريم، دليل ذلك: قوله في سورة العنكبوت:﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(43) ﴾

و(القرية) لم يسمها الله –تعالى– لأن العبرة تحصل بدون تعيينها، ولكن جمهور المفسرين على أنها (أنطاكية) وهي من قرى بلاد الشام على ساحل البحر الأبيض والله أعلم، وأصحاب القرية هم سكانها، وقد كانوا وثنيين.

وقد انتصب (أصحابَ) على أنه بدل مطابق من (مثلا).

و إذ : ظرف زمان بمعنى: حين.

و(المرسلون): هم رسل الله إلى أهل القرية ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، والتخلي عن عبادة غيره.

وجملة (إذ أرسلنا إليهم اثنين) بدل من جملة: (إذ جاءها المرسلون).

و (عززناهما) : قويناهما. يقال في اللغة: عزر فلان فلانا: إذا انضم إليه فصار معه عزيزا قويا.

والعرب يقولون: تعزز لحم الناقة إذا صلب، وعزز المطر الأرض إذا لبَّدها وشددها. والأرض إذا صلبت يقال لها العَزاز.

ومن أسماء الله الحسنى (العزيز) لأنه هو القوي القاهر.

قال ﷻ في سورة الحشر: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(1)**﴾ .

ومن هما الرسولان اللذان بعثهما الله ﷻ إلى سكان القرية؟ ومن هو الرسول الثالث؟ الذي عززهما به؟ لم يسموا في الآية، ولذلك اختلف المفسرون في تعيين أسمائهم، والعبرة ليست متوقفة على معرفة أسمائهم ولو كان في ذكرهم فائدة لأفادنا الله بها. لذلك أضرب عنهم صفحا، ونكل علمهم إلى مرسلهم.

ومعنى الآيتين أن الله ﷻ أمر نبيه محمدا ﷺ بأن يضرب للمشركين مثلا هو أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم أولا رسولين فلم يؤمنوا بهما فقواهما برسول

ثالث فقالوا لهم إنّا رسل ربنا إليكم، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه شيئا.

تحقيـــق:

اختلفت الروايات في هؤلاء الرسل الثلاثة؛ هل هم رسل الله مباشرة، أو رسل السيد المسيح بإذن من الله.

كما اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية هل هي أنطاكية أو غيرها؟

وقـــد ســـجل ابن كثير رحمه الله تحقيقا مهما في هذا الموضوع في سياق تفسيره للآيـــات الـــتي تضمنت قصة أصحاب القرية فقال: "...وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح عيســـى بن مريم عليه الصلاة والسلام، كما نص عليه قتادة وغيره وفي ذلك نظر من وجوه :

-أحدهـــا أن ظاهـــر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ﷻ لا من جهة المســـيح علـــيه السلام كما قال ﷻ ﴿**إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث، فقالوا إنا إليكم مرسلون**﴾

ولوكـــان هـــؤلاء مـــن الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم (ما انتم إلا بشر مثلنا)

-الـــثاني أن أهـــل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أول مدينة آمنت بالمســـيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع التي فيهن بتاركة...

فـــإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت فأهل هذه القرية ذكر الله –تعالى– أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم. والله أعلم.

-الثالـــث أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر غير واحد من السلف أن الله –تبارك وتعالى– بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة

مـــن الأمـــم عـــن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله ﷻ ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكيا، كما أطلق ذلكـــ غير واحد من السلف أيضا أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة؛ فإن هـــذه لم يعـــرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية، ولا قبل ذلكـــ والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى:

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ(14)قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(15)وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(16)﴾

التحليل اللغوي:

﴿بشـــر﴾: هذا اللفظ يصلح للمفرد فيكون بمعنى إنسان ويصلح للجمع فيكون بمعنى: ناس.

ومـــن استعمالاته في القرآن الكريم بمعنى المفرد قوله ﷻ في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ(71) ﴾.

وبمعنى الجمع قوله ﷻ في سورة التغابن: ﴿...فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾.

وقوله أيضا في هذه الآية في سورة يس.

و(من شيء) شيء: اسم مجرور لفظا بمن، منصوب تقديرا لأنه مفعول (أنزل) أي ما أنزل الرحمن شيئا.

وفائدة جره بـــ(من) التقليل، أي: ما أنزل الرحمن أي شيء مهما كان قليلا.

والجملتان: (ما أنتم إلا بشر مثلنا) و(إن أنتم إلا تكذبون) تفيدان الحصر، لأن الأولى مبدوءة بـ(ما) النافية تلتها (إلا) الاستثنائية والثانية مبدوءة بـ (إن) النافية كذلك تلتها (إلا) الاستثنائية، والمعنى أنتم –أيها المدعون للرسالة السماوية- محصورون في طبيعتكم البشرية –كما نحن- لا تتعدى إلى المستوى الذي يؤهلكم لتلقي الوحي من الله.

وكلامكم محصور في الكذب لا يتعداه إلى الصدق بأي حال.

﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾

هذه الجملة التي يستشهد بها الرسل بعلم الله على رسالتهم الإلهية قد جرت هي ومثيلاتها مجرى القسم؛ فكأنهم قالوا والله إنا إليكم لمرسلون.

وقد جاءت مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، وأداة التوكيد (إن)، واللام الداخلة على خبر (إن) (لمرسلون) وهذه المؤكدات اقتضاها الإنكار الشديد من أصحاب القرية لرسالة أولئك الرسل.

(البلاغ المبين) التبليغ الواضح من عند الله.

والجملة:(ما علينا إلا البلاغ المبين) تفيد الحصر أي إن مهمتنا –نحن الرسل- محصورة في التبليغ ليس إلا، وإيمانكم وعدمه موكول إلى خالقكم .

ومعنى الآيات:

إن الرسل الثلاثة لما قالوا لأصحاب القرية إنا إليكم لمرسلون أجابوهم بقولهم:

ما أنتم إلا ناس مثلنا ولا مزية لكم تفضلوننا بها و لم يترل الله عليكم وحيا تبلغونه إلينا، وما أنتم إلا كاذبون في ادعائكم الرسالة. فأقسم لهم الرسل إنهم لمرسلون من عند الله إليهم وأخبروهم بأن مهمتهم محصورة في التبليغ الواضح لما كلفهم الله بتبليغه إليهم، أما محاسبتهم على كفرهم فهي موكولة إلى ربهم.

تنبيهان:

1-قولهم: ما أنزل الرحمن من شيء يدل على انهم مؤمنون به، ولكنهم ينكرون أن يبعث إليهم رسلا من البشر .

2- الشبهة التي عرضت لأصحاب القرية وهي إنكار أن يبعث الله إليهم رسلا من أنفسهم هي الشبهة نفسها التي عرضت لأقوام آخرين ومنهم العرب .

قال الله ﷻ في سورة الإسراء:﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا(94)قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا(95)** ﴾ .

وقال في سورة الأنعام:﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ(8)وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ(9)** ﴾. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(17)﴾

التطير –عند العرب في جاهليتهم- أن يثير أحدهم طائرا مّا فإن طار من اليسار إلى اليمين سموه السانح، وتيمنوا به وفرحوا، ومضوا إلى ما عزموا عليه. وإن طار من اليمين إلى اليسار سموه البارح وتشاءموا به وتقبضوا وقعدوا عما أرادوه. وذلك من خرافات الجاهلية وتوهماتها .

ثم تنوسيَ هذا الأصل، فصاروا يعبرون عن التشاؤم بالتطيّر ولو لم يثيروا أي طائر.

وكان من عادة الأقوام الذين يرسل الله إليهم رسلا إذا حدث فيهم وباء أو قحط أو فتنة أو غير ذلك مما يسوءهم نسبوا ذلك إلى مجيء الرسل، وقالوا لهم أنتم السبب فيما حدث لنا، وتشاءموا منهم ذلك التشاؤم الذي عبر عنه القرآن بالتطير على عادة العرب.

وهذا ما وقع من أصحاب القرية (موضوع الآية) كما وقع من ثمود مع رسولهم: صالح -عليه السلام- وقد ذكر في سورة النمل عند قوله: ﴿**قالوا اطيرنا بك وبمن معك، قال: طائركم عند الله، بل أنتم قوم تفتنون**﴾49.

وقد ذكر مثل ذلك في سورة الأعراف عن فرعون وملئه مع موسى -عليه السلام- ومن معه ﴿**...وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(131)** ﴾.

كما ذكر مثله في سورة النساء عن اليهود ومنافقي العرب مع سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام:﴿ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا(78)**﴾ .

واللام في(لئن)لام القسم دخلت على (إن) الشرطية، وكذلك اللام في (لنرجمنكم) وفي (ليمسنكم) دخلت على فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد الثقيلة فبني معها على الفتح.

وكل من الفعلين جواب القسم اكتفى به عن جواب (إن) الشرطية حسب القاعدة النحوية.

وتقدير الكلام: نقسم بالله -إن لم تنتهوا- لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم.و(تنتهوا) بمعنى تكفوا أنفسكم عما جئتمونا به .

و(الرجم) معناه الرمي بالرجام وهي الحجارة التي قد تؤدي إلى القتل المهين.

و(المس بالعذاب) قد يكون بالضرب المبرح، أو الصلب أو غير ذلك من أنواع التعذيب المؤلم.

ومعنى الآية أن أصحاب القرية لما عدموا الحجة التي يردون بها على دعوة الرسل الثلاثة لجأوا إلى التخريف المتمثل في التشاؤم منهم، وإلى التهديد باستعمال العنف معهم! وهذا دأب الطغاة على مر العصور حين يُعوزُهم الدليل المقنع يلجأون إلى العنف أو التهديد به. ومن هؤلاء الطغاة قوم نوح الذين قالوا له: ﴿**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمَرْجُومِينَ(116)** ﴾ سورة الشعراء، وقوم شعيب الذين قالوا له: ﴿... **وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ(91)**﴾ هود.

وآزر الذي قال لابنه إبراهيم عليه السلام:﴿ **لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ**﴾ مريم 46.

وقوم أصحاب الكهف الذين قالوا عن طغاة قومهم: ﴿**إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ...**﴾ الكهف 20.

وأخيرا حدث ولا حرج عما لاقاه خاتم النبيئين من أذى قريش وسائر العرب؛ فقد شتموه وعيَّروه وحاصروه مع أصحابه في شعب أبي طالب وقاطعوه مع عشيرته ثلاث سنوات ذاقوا خلالها وطأة الجوع والعطش ورموه بالحجارة حتى أدموا عراقيبه، وألقوا على ظهره الفرث وهو ساجد لله في بيت الله الحرام وتآمروا على سجنه أو قتله أو إخراجه من بلده ثم تحالفوا مع اليهود في يثرب على حربه، وتمالئوا على استئصال الإسلام من جزيرة العرب (كما يتمالأ الآن اليهود والمتهودون وعملاؤهم على إفراغ الإسلام من محتواه الذي من شأنه أن يبعث العزة والكرامة في نفوس معتنقيه، ويضغطون ضغوطا ملحة ووقحة على الدول الإسلامية في العالم ليغيروا مناهج التعليم في بلادهم، وذلك بحذف كل النصوص الشرعية التي تحيي في نفوس الشباب روح المقاومة للعدو الأجنبي،

وتحفظهم من الوقوع فريسة سائغة للظالمين المحتلين لبلادهم، وتجعلهم يأبون الخنوع والتبعية لغيرهم!)

وبما أن العلماء العاملين هم ورثة الأنبياء والمرسلين فقد نالهم ما نالهم من صنوف المكر والأذى؛ فكم من عالم اضطهد أو أهين في عرضه وشرفه أو عذب في غيابات السجون أو اغتيل أو سمم أو قتل علانية لأنه صدع بكلمة حق عند طاغية مستبد.

وهذه سنة الله في خلقه: معركة دائمة بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. والعاقبة عند ربك للمتقين.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ(18)﴾

الجمل الثلاث ردٌّ من الرسل عليهم السلام على تطير أصحاب القرية بهم، وتهديدهم بالرجم والتعذيب.

وقول الرسل: طائركم معكم معناه: شؤمكم وما وقع لكم ليس بسببنا ولكن بسبب كفركم ورفضكم للحق فشؤمكم مصاحب لكم.

وقولهم: أئن ذكرتم، الهمزة للاستفهام، دخلت على (إن) الشرطية و (ذكرتم) فعل الشرط وجواب الشرط محذوف ، وتقدير الكلام: أئن ذكرناكم ووعظناكم تطيرتم بنا وهددتمونا؟ وكان الأجدر بكم أن تكرمونا وتشكرونا، وتتبركوا بدعوتنا إياكم لعبادة ربكم والإقلاع عن عبادة أوثان لا تنفع ولا تضر.

وقولهم:﴿ بل أنتم قوم مسرفون﴾ الإسراف المفهوم من (مسرفون)معناه مجاوزة الحد في الطغيان والتمرد على الخالق العظيم.

و(بـــل) حرف أفاد الإضراب عما اقتضته جملتا الشرط وهو كون التذكير سببا للتطير أي ليس الأمر كما تصورتم، وإنما إسرافكم في الطغيان هو الذي جعلكم تعرفون بما لا تعرفون.

قوله تعالى:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(19) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(20)﴾

المدينة المذكورة في هذه الآية هي القريـــة التي ورد ذكرها سابقا في قوله ﷻ ﴿**واضـــرب لهـــم مثلا أصحاب القرية...**﴾ عبر عنها هنا بالمدينة على سبيل التفنن. والله اعلم.

و﴿**أقصى المدينة**﴾ : أبعد مواضعها أو أطرافها .

ومـــن ذلك (المسجد الأقصى) وهو المسجد الأبعد بالنسبة إلى المسجد الحرام في مكـــة، وبيـــنهما المســـجد النبوي في المدينة المنورة. قال الله -تعالى- في سورة الإســـراء: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...**﴾1 .

ومؤنـــث الأقصى: القصوى ومنه قوله ﷻ في سورة الأنفال: ﴿**إذ أنتم بالعدوة الدنيا، وهم بالعدوة القصوى ...**﴾.

والصفة المشبهة من قصا يقصو أو قصِي- يقصَى قَصيٌّ . ومنه قوله ﷻ في سورة مريم: ﴿**... فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا(22)** ﴾.

و لم يذكر في الآية اسم هذا الرجل الذي جاء يسعى ولو كان في ذكر اسمه عبرة لذكره. إذاً لا فائدة في البحث عنه.

و (يســـعى) مضـــارع: سعى بمعنى مشى مسرعا؛ فهو جاد في سيره إلى قومه لينصـــحهم بتصديق رسل الله إليهم لأنه تيقن صدقهم بسبب ما أدركه فيهم من دلائل الحق، وبما يكون قد شاهده من كرامات ظهرت على أيديهم فلم يشأ أن يقبع في بيته ويقول علي بخاصة نفسي.

ولعـــل هـــذا الـــرجل سمع بتهديد قومه للرسل فعزم على إنقاذهم من الموت أو التعذيب، وإنقاذ قومه من العقاب الإلهي المدمر لهم.

ومثله في ذلك مؤمن آل فرعون حين خاطبهم بقوله: ﴿**يَاقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا** ﴾غافر29.

وقـــد استعمل الرجلان الأسلوب الذي تقتضيه الحكمة وهو مخاطبة كل منهما قومه بقوله: يا قوم ليبين لهم أنه منهم، ومن ثم لا يبغي لهم إلا الخير .

﴿اتبعوا من لا يسألكم أجرا، وهم مهتدون﴾

أكد دعوته إياهم توكيدا لفظيا (اتبعوا) لينبههم إلى أن هؤلاء الرسل لا يطلبون منهم أجرة على تبليغ رسالة ربهم إليهم .

وهو ما أمر الله به نبيه محمدا ﷺ أن يقوله لقومه: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ الشورى 23.

ومن قبله: هود عليه السلام﴿ يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هود 51؛ ومن قبله نوح عليه السلام:﴿ وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ هود 29.

وقد أخبر الرجل الناصح قومه بأن هؤلاء الرسل مهتدون. وإذا كانوا مهتدين فلا يدعون إلا إلى الهدى.

قوله تعالى:

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21)﴾

استعمل هذا الرجل الناصح لقومه أسلوب الإستفهام الإنكاري على نفسه. والمعنى أي شيء حصل لي حتى أمتنع من عبادة الله الذي فطرني أي أنشأني وأوجدني من العدم. وصيغة الاستفهام هذه تشي بأن قومه قد أنكروا عليه إيمانه بالرسل الذين نصحوه بعبادة الله وحده دون سواه.

ثم إن هذا الرجل وعظ قومه وذكرهم بأنهم سوف يرجعون إلى خالقهم يوم القيامة فيحاسبهم على عدم الاستجابة لرسله إليهم.

ومن أوجه البلاغة في الآية الكريمة ما يسمى الاحتباك وهو أن يحذف من الأول نظير ما أثبت في الآخر.

والأصل: وما لي لا أعبد الذي فطرني وفطركم، وإليه ترجعون وأرجع.

قوله تعالى:

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ(22)إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(23)إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(24)﴾

استعمل الرجل المؤمن الاستفهام الإنكاري أيضا مع نفسه بقول: ءاتخذ من دونه آلهة؟ أي هل أجعل لنفسي آلهة من دون الله إن يصبني ربي بمكروه لا تفدني شفاعتهم لي عنده بشيء؟ ولا يخلصوني من عقابه؟ والحق أنه لا شفاعة لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولا قدرة لهم على إنقاذ أحد، فهم أحقر من ذلك.

ومثل الآية قوله ﷻ في سورة الزمر: ﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ**

رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(38) ﴾.

وقوله: ﴿إني إذا لفي ضلال مبين﴾

هو جواب لنفسه عن سؤاله السابق أي إني إن اتخذت آلهة من دون الله أكون في خطأ بين.

﴿ إني آمنت بربكم فاسمعوني ﴾.

مضـــمون هذه الآية هو نتيجة نهائية لكلامه معهم، وإعلان صريح عن إيمانه بالله الذي هو ربه وربهم، ودعوة لهم أن يسمعوا نصيحته سماع قبول فيؤمنوا كما آمن وفي قراءة نافع حُذفت ياء المتكلم من فعل الأمر (اسمعون) كما حذفت من الفعل المضارع (ينقذون) والأصل (اسمعوني) و (ينقذوني).

وكيف كانت نهاية هذا الرجل الصالح؟

يقال إنهم وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه!

قوله تعالى:

﴿قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(25) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ(26)﴾

كـــان آخر كلام الرجل الصالح لقومه: (إني آمنت بربكم فاسمعون) فهل سمعوا نصحه وقبلوه؟ أو أعرضوا عنه وآذوه ؟ شانهم في ذلك شأن المستكبرين؟

هاتـــان الآيتان تدلان على أنهم قتلوه، فمات من أجل مناصرته للحق، فألحقه الله ﷻ بالشهداء الذين هم عند ربهم يرزقون؛ والتعجيل بإدخاله الجنة، والإخبار عنه بأنه تمنى أن يعلم قومه بغفران الله لذنوبه، وجعله من المكرمين، كل ذلك يدل على استشهاده في سبيل الله.

وقد ذكر المفسرون لكيفية قتله روايات مختلفة، منها ما قاله عبد الله بن مســعود رضي الله عنه: (وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصبه من دبره، وألقوه في

بـــئر) ومنها أنهم حفروا له حفرة، ثم ردموه فيها حيا، ومنها أنهم أحرقوه حيا. وأياما كانت كيفية قتله فهو شهيد.

ولفـــظ (قيل)محوَّل عن (قُول) المبني للمجهول، وعليه فمَن هذا القائل الذي لم يذكر؟

يحتمل أن الآمر بذلك هو الله ﷻ والظاهر أنـــه أمر تكويني، وهو الناشـــئ عن قولـــه –تعالى– للشيء: (كن فيكون) كما يحتمل أن الآمر بذلك ملائكة الرحمن الذيـــن يبشـــرون المؤمنين المستقيمين بالجنة عند الاحتضار أو عند البعث وهو مصداق قوله ﷻ في سورة فصلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30) نَحْـــنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32)**﴾ .

و (ليت) حرف يدل على التمني.

و (يـــا) قبلها للتنبيه.

و(مـــا) مصـــدرية يسبك الفعل بعدها بمصدر هو: الغفران المصوغ من (غفر) وموقعه من الإعراب الجر بالباء وتقدير الكلام: يا ليت قومي يعلمون بغفران الله لذنوبي وجعلي من المكرمين.

والمكـــرمون: هم الذين أكرمهم الله ﷻ أي منحهم الكرامة وعلو المنزلة، جعلني الله وإياكم منهم.

ولنا أن نتساءل: لم تمنى هذا الرجل الصالح أن يعلم قومه بحاله عند الله –تعالى؟

الظاهر أنه رغب في ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله.

والعبرة التي نستخلصها من قصة هذا الشهيد أن الذين يجهرون بكلمة الحق، ويصبرون على ما يناهم في سبيلها من أذى، ولو أدى بهم إلى القتل هم -عند الله- من المكرمين المحظوظين لديه.

قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ(27) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(28)﴾

في الآية السابقة (قيل أدخل الجنة) بين الله -تعالى- لنا ما كان من أمر هذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى إلى قومه، وفي هاتين الآيتين أخبرنا بأنه أنزل بقومه عقوبة الاستئصال وهي إفناؤهم عن آخرهم دون أن يتطلب منه الأمر إنزال جند من السماء يحاربونهم لأن سنته في عقوبة الأمم العاتية لم تجرِ بذلك، وإنما كانت عقوبتهم بصيحة واحدة أمر جبريل عليه السلام بإطلاقها عليهم ففاجأهم التدمير.

وقوله (من بعده) أي من بعد موته، وهذا كقول يعقوب النبي لبنيه: ﴿ ما تعبدون من بعدي﴾ سورة البقرة.

وقوله ﷻ ﴿ من جند ﴾ أفادت (من) تأكيد العموم في معنى: جند، وهكذا هي إذا وقعت في سياق النفي، والنفي هنا بـ(ما) في (ما أنزلنا)

ولولا قصد التوكيد لانتصب لفظ (جند) على أنه مفعول أنزل؛ وقوله تعالى ﴿ وما كنا مترلين ﴾ اعتراض بين نفي إنزال جند من السماء، وبين إثبات العقوبة.

وفائدة الاعتراض الإعلام بأن الله تعالى ليس من عادته إنزال الملائكة لإهلاك القوم الظالمين، وإذا أزلنا هذا الاعتراض صار التركيب هكذا ﴿**وما أنزلنا على قومه من**

بعده من جند من السماء، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾

وقد ذكر الله في كتابه العزيز نماذج من إهلاك العصاة فقال في سورة العنكبوت:﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (كقوم لوط عليه السلام) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (كثمود وأصحاب القرية) وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (كقارون) وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا (كفرعون وجنوده، وقوم نوح) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾40.**

وقال في سورة الحاقة:﴿ **...وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)﴾**.

و(إن) في قوله ﷻ ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ نافية واسم كان ضمير مستتر يعود إلى العقوبة التي لم تذكر في الكلام، و (إلا) أداة استثناء ملغاة، و(صيحة) خبر كان وتقدير الكلام: ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة صاحها جبريل بهم فعجلت بخمودهم.

و الخمود –في أصل وضعه– للنار. يقال:خمدت النار تخمد–خمودا: إذا انطفأت . وإذا استعمل الخمود في وصف الآدميين فهو على سبيل الاستعارة؛ فقد شبهت –هنا– حياة القوم المتصفة بالقوة والطغيان بالنار القوية الملتهبة، وشبهت موتتهم بخمود النار وهمودها.

والإتيان بـ(إذا) الفجائية يدل على سرعة خمودهم؛ فما كادت الصيحة تقع عليهم حتى كانوا خامدين.

ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنبياء عن القوم الظالمين الذين استوجبوا العقوبة الشاملة:﴿ **... فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ(15)﴾**

تنبيـــه:

قد يتساءل القارئ فيقول: كيف نوفق بين هذه الآية التي تنفي إنزال

الملائكة لعقوبة الكافرين المكذبين لرسلهم وبين آيات أخرى تثبت إنزالهم، منها قوله -تعالى- في سورة الأنفال: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(9)**﴾.

والجواب: إن الملائكة الذين أنزلهم الله في غزوة بدر لم يترلهم من أجل استئصال كفار قريش وإفنائهم وإنما أنزلهم من أجل تثبيت المؤمنين، وتقوية عزائهم، ومشاركتهم أيضا في القتال مشاركة يعلم حقيقتها القاضي بها وذلك إكراما للنبي ﷺ والمجاهدين معه في سبيل الله.

قال الله ﷻ في سورة الانفال: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(12)ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(13)**﴾.

قوله تعالى:

﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(29)**﴾

﴿ يا حسرة﴾ يا: حرف نداء و(حسرة) منادى (من قسم الشبيه بالمضاف) فهو منصوب.

و(الحسرة): هي الغم الذي يصيب الإنسان من جراء الندم الشديد على نفع فاته.

و الحسرة في الأصل لا تنادى لأنها معنى من المعاني وإنما الذي ينادى هو الإنسان الذي يفهم الخطاب، ولكن استعير لها النداء تنزيلا لها منزلة من يعقل كأنه يقول: يا حسرة هذا أوانك فاحضري.

و(العباد) جمع العبد ويجمع أيضا على العبيد.

غير أن العرف الاجتماعي خص العبيد بالمملوكين من بني آدم، وبقي لفظ

(العـــباد)يشـــمل جميع الآدميين ، والمراد (بالعباد) هنا: جميع المكذبين بالرسل ومنهم أصحاب القرية الذين ضرب بهم المثل، وكفار قريش .

وبما أن الحسرة انفعال نفساني في داخل الإنسان فالله ﷻ منزه عنها، ولكنه يخبرنا بأن حالة هؤلاء المكذبين لرسلهم تستدعي الحسرة من حيث إن تكذيبهم يؤدي بهم إلى العذاب يوم تقوم الساعة بعد العذاب الذي ذاقوه في الدنيا. قال الله ﷻ في ســـورة الأنعام: ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها...**﴾32.

وهكـــذا يكـــون مصير كل من أعطاهم الله ﷻ فرصة للعمل بما يرضيه ويجنب ســـخطه ولكنهم لم يستفيدوا منها، كما جاء في القرآن الكريم عن أهل النار في ســـورة فاطـــر:﴿ **وَالَّذِيـــنَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّـــفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(36)وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37)**﴾.

وقد سمى الله يوم القيامة يوم الحسرة (بالنسبة للظالمين) حيث يقول في سورة مريم:﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾30.

وكلمة (رسول) مجرورة في اللفظ بـــ(من) ولكنها في المعنى فاعل بـــ(يأتي) مؤخر عن مفعوله الذي هو ضمير الغائب (الهاء في يأتيهم) والتقدير: ما يأتيهم رسول.

وزيادة (من) في سياق النفي تفيد العموم أي مهما يبعث الله إليهم أي رسول يكذبوه ويستهزئوا به.

وتقـــديم الجار والمجرور (به) على العامل (يستهزئ) يراد به الاهتمام بالرسول، مع مراعاة الفاصلة.

والخلاصة أن الجملة الأولى في الآية أفادت وقوع التحسر من المتحسرين، والجملة الثانية بينت سبب هذا التحسر وهو الاستهزاء بالرسل.

وهل سَلِم خاتم الأنبياء من استهزاء المشركين؟ كلا فقد ناله من استهزاء المشركين في مكة المكرمة، واستهزاء اليهود والمنافقين في المدينة المنورة الشيء الكثير.

ومن يقرأ القرآن الكريم وسيرة النبي محمد ﷺ يقف على ألوان الاستهزاء الذي كان مسلطا عليه وعلى أصحابه. قال الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿ **وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾36.

وفي سورة الفرقان: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا(41)إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا...**﴾ 40-41.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ(30)﴾

الاستفهام في (ألم يروا) تقريري لأنه يحملهم على الإقرار أي الاعتراف بأنهم رأوا.والرؤية هنا ليست بصرية لأن المعنيين بالكلام وهم الكافرون الحاضرون الذين لم يصبهم عذاب الله لم يكونوا يشاهدون بأعينهم ما وقع للمهلكين قبلهم وعليه فالرؤية –هنا– علمية أي (ألم يعلموا؟)

والجواب أنهم علموا ذلك بواسطة الأخبار المتداولة على مر العصور.

وضمير الغائب وهو الواو في (ألم يروا) يعود إلى العباد المذكورين في الآية السابقة.

و (كم) خبرية تدل على كثرة الإهلاك في الأمم المتمردة على رسلها. وهي مفعول مقدم لفعل (أهلك).

و (القرون) جمع القرن، ويطلق على المدة الزمنية الطويلة كما يطلق على الأمة

الـــتي تعـــيش في تلك المدة. وهو المراد هنا. وقد ورد في غيرما آية لفظ القرون مرادا به الأمم من ذلك قوله في سورة الإسراء﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(17)**﴾ .وفي المؤمنون: ﴿**... ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ(31)** ﴾.

والضـــمير في (أنهـــم) يعـــود إلى القوم المهلكين، وفي (إليهم) يعود إلى القوم الكافـــرين الذين لم يصبهم الهلاكـــ، ومنهم كفار قريش الذين كانوا يناصبون محمدا ﷺ والمؤمنين معه العداء.

ومعنى عدم رجوع المهلكين إليهم عدم رجوعهم إلى الحياة الدنيا لتدارك مـــا فـــاتهم من الإيمان ومقتضياته هذا التدارك الذي يطلبه كل واحد منهم عند الغرغـــرة ولكـــنه لا يمكّن منه، كما ورد في قوله ﷻ: ﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت قال: رب ارجعون، لعلي اعمل صالحا فيما تركت**﴾ فيقال له: ﴿كلا﴾ أي لا رجـــوع، ثم يؤكد الله ﷻ هذه المقولة التي يقولها المحتضر:﴿ **إنها كلمة هو قائلها**﴾ المؤمنون 110-111]

فالذين ماتوا لا تعود إليهم الحياة إلا في الدار الآخرة.

وموقع جملة ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ من الإعراب أنها بدل اشتمال من جملة ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ كأن إهلاكهم يشتمل على عدم رجوعهم.

وقـــد استدل العلماء الأجلاّء رضـــي الله عنهم بهذه الآية الكريمة على عدم رجوع الأموات إلى الحياة الدنيا.

وممن نص على ذلك الإمـــام أبو عبد الله محمد القرطبي في تفسيره لهذه الآية. قـــال –رحمه الله–: (وهذه الآية رد على من زعم أن من الخلق من يرجع قـــبل القيامة بعد الموت) قلت: (ما يدعيه بعض الناس أو يدعيه له بعض البسطاء

المغفلين من أنه تكلم مع أحد الأموات، أو أخرج له يده من قبره ليصافحه هو من الأقاويل الخرافية التي أنشأها في نفوس أصحابها وَلَعُهم بالكرامات الزائفة، وعدم شعورهم بأنهم سوف يحاسبون يوم القيامة على ما تلفظه ألسنتهم من أقوال يضللون بها الأمّيِّين، وأشباه الأميين).

نعم هناك كرامات حقيقية يمنحها الله ﷻ لبعض أوليائه الصادقين، ولكنهم لا يعلنونها لصدق تعبدهم، وصواب توجههم، وإذا أعلنت فلا تقدح في إخلاصهم لربهم.

ومن السخافات التي مازال الناس يتندرون بها في مجالسهم ويتداولونها بمرارة في أحاديثهم أن بعض أولياء الشيطان يستعينون على ما يزعمونه من كرامات بشياطين الجن والإنس ليخدعوا عوام الناس، ويضمنوا ولاءهم الروحي والمادي، وكفى بذلك زيفا وإثما ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(31)﴾

(إن) مخففة من الثقيلة (إنَّ) لا تعمل في هذا الموضع أي لا تنصب الاسم وترفع الخبر.(كل) مرفوع على أنه مبتدأ؛ وتنوينه تنوين العوض أي حذف المضاف إليه، وعوض بالتنوين في المضاف (وهو كل) وتقدير **الكلام ﴿ وإن كل قوم...﴾**.

و(لما) قرأت بالتخفيف وبالتشديد.

فعلى قراءة التخفيف: اللام هي اللام الفارقة التي تفرق بين (إن) المخففة من الثقيلة و (إنْ) النافية، و(ما) زيدت لتأكيد الكلام.

وجميع (بمعنى مجموعون) خبر المبتدأ.

والتقدير: إن كل قوم مجموعون لدينا...

وعلى قراءة التشديد (لما): بمعنى إلا الاستثنائية و (إن) قبلها نافية بمعنى ما.

والتقدير: وما كل قوم إلا مجموعون لدينا...

و (لدينا) بمعنى عندنا أي عند الله تعالى.

﴿ محضـــرون﴾ اسم مفعول من (أحضر) أي يحضرهم الله ﷻ من قبورهم إلى أرض المحشر للمحاسبة ثم الجزاء.

وفي هذه الآية ما يسمى في علم البلاغة بالاحتراس وهو --هنا- إزالة الوهم الذي قد يسبق إلى الأذهان من قوله --تعالى-- ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ فيتوهمون أن لا رجوع إلى الله في الدار الآخرة فأزيل هذا الوهم بهذه الآية .

ورحم الله من قال:

ولو أنـــا إذا متنـــا تـــركنـــا ... لكان الموت راحـــــة كـــل حـــي

ولكنا إذا متـــنـــا بـــعـــثـــنا ... ونسأل بعـــده عـــن كـــل شـــــي

قوله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(32)وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ(33) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(34)﴾

المناسبـــة:

في الآيـــة الســـابقة أثبـــت الله ﷻ رجـــوع كل العباد إليه يوم القيامة ليحاسبهم. وفي الآيات اللاحقة أقام الأدلة القاطعة على قدرته التامة على إحيائه إياهم وإحضارهم لديه.

شـــرح الألفـــاظ:

الآيـــة (وجمعها آيات) هي العلامة الظاهرة التي تدل على شيء مّا كقولك مثلا: الـــتزام المســـلم بشريعة الله آية على تقواه. وهي --هنا- بهذا المعنى؛ فإحياء الله الأرض بعد موتها آية على قدرته على إحياء العباد بعد موتهم.

ولكـــن حيـــنما نستعرض القرآن الكريم من أوله إلى آخره نجد الآيات مســـتعملة فيه أيضا بمعنى الكلمات أو الجمل أو الفقر القرآنية التي تحمل الهداية الســـماوية إلى البشر، كقوله في سورة الحديد: ﴿ **هُوَ الَّذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(9)**﴾.

كمـــا استعملت فيه الآية أيضا بمعنى العبرة، كقوله في سورة آل عمران: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ(13)**﴾.

وقـــد وردت الآية بمعنى البناء العالي. قال الله ﷻ في سورة الشعراء يخاطب قوم هود عليه السلام: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128)** ﴾.

وجاءت بمعنى الأمر الخارق للعادة الذي لا يستطيع البشر أن يفعلوه أو يأتوا بمثله، كانشـــقاق القمـــر مثلا. قال الله ﷻ في سورة القمر ﴿**اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ(1)وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ(2)**﴾. وفي سورة البقرة: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ...**﴾ 117.

والضمير في (لهم) - يعود إلى كفار قريش.

و(الأرض الميـــتة) (بتشديد الياء أو تسكينها) هي الأرض اليابسة التي لا نبت فيها، فإذا شاء الله إحياءها أنزل عليها المطر فأنبتت من كل زوج بهيج. قال الله -تعالى- في سورة النحل: ﴿ **وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(65)** ﴾.

وفي سورة النحل أيضا: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)**﴾ .

و(الحَـــب) اســـم جمع واحده: حبة، وهو يشمل أنواعا كثيرة كالقمح والشعير والأرز؛ و(الجنات) جمع مؤنث سالم مفرده جنة وهي البستان.

و(تفجير العيون) إخراج المياه من جوف الأرض في هيئة عيون وأنهار.

و(اللام) في (ليأكلوا) لام التعليل.

وضمير الغائب في (ثمره)يعود إلى المذكور من النخيل والأعناب، وذكر تفجـــير العيون بين الضمير العائد والمعود إليه يشير إلى حقيقة ثابتة وهي توقف حـــياة النخيل والأشجار والحبوب على وجود الماء، ضرورةَ أن كل شيء حي كوّن الله حياته من الماء كما جاء في القرآن الكريم: ﴿...**وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...** ﴾ **الأنبياء 30**.

و(مـــا) في : (مـــا عملته أيديهم) يصح أن تكون اسم موصول والجملة بعدها صـــلتها، وتقدير الكلام:...ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا –أيضا– من الذي عملته أيديهم أي صنعته من زرع وغرس وخبز الخ.

كما يصح أن تكون (ما) نافية، وتقدير الكلام ليأكلوا من ثمره،وهذا الثمر لم تعمله أيديهم وإنما عمله الله وأنشأه لهم ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾ النحل 18.

﴿أفلا تشكرون ﴾:الهمزة استفهامية دخلت على جملة محذوفة والفاء عاطفة جملة لا(تشكرون) على تلك الجملة المحذوفة وتقدير الكلام: أتنعمون بما رزقكم الله فلا تشكرونه عليه؟

وخلاصـــة معاني الآيات أن الله –تبارك وتعالى– لفت أنظار عباده إلى الأرض تكون ميتة يابسة لا نبت فيها فيترل عليها المطر فتخرج ما في بطنها من مكـــنونات في بذورها المختلفة، فتصير الأرض مخضرة بكل لون بهيج، وذلك هو معنى إحيائها بعد موتها.

فإحـــياء الأرض بعـــد موتها آية وعلامة ظاهرة على أن الذي يقدر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء البشر بعد موتهم، ومن ثم محاسبتهم ومجازاتهم.

وفي ضمن هذه الآيات الدالة على قدرة الله –تعالى– على البعث والنشور آيات أخر عـــلى لطفه بعباده، ورحمته إياهم من حيث إنه فجر لهم العيون التي يشربون منها، وتشـــرب دوابهـــم ويســـقون أشجارهم، وأخرج لهم من الأرض ما يتقوتون به، ويحافظون على حياتهم من حبوب وثمار.

قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(35)﴾

لفظ (سبحان) من التسبيح، ومعناه التقديس أي تقديس الله، وتنزيهه عما لا يليق به من الأوصاف، واقبح الأوصاف التي لا تليق بجلال الله أن يجعل الناس له شريكا في ملكه.

ورد في الصـــحيحين عـــن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: (قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال : أن تجعل لله ندا، وهو خلقك).

وعـــن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: (ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله ندا؟ قل ما شاء الله وحده) رواه النسائي.

وفي روايـــة أخرى عنه ﷺ قال: (لا يقولن أحدكم ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن ليقل: ما شاء الله، ثم شاء فلان) .

وفي إضـــافة (سبحان) إلى الموصول وصلته (الذي خلق) إشارة إلى سبب استحقاقه للتســـبيح والتعظيم وهو هذا الإبداع العجيب، والإتقان الفريد في إيجاد الأشياء كلها على قاعدة الزوجية؛ في الإنسان والحيوان والنبات وفي غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله.

وصدق الله العظيم في قوله:﴿**... صنع الله الذي أتقن كل شيء...** ﴾ النمل90 ،

و﴿...الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ السجدة 6.

و (الأزواج): جمع مفرده: زوج، وهو أحد القرينين المتشابهين؛ كالذكر والأنثى في بني آدم، وفي الدواب وفي الحيتان، وفي ما تنبته الأرض، وفي الكهرباء (الموجب والسالب) وفي غير ذلك مما أبدعه الخالق ﷻ؛ قال الله ﷻ في سورة الذاريات: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(49)﴾ وفي سورة طه: ﴿وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى(53)كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى(54)﴾ وفي سورة ق:﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(7)﴾

وفي الآية إيماء إلى أنه ﷻ هو الوحيد الذي يستحق كل الاستحقاق أن يعبده البشر، ويخضعوا لتعاليمه ضرورة أنه الخالق العظيم لكل شيء في الأرض والسماء، قال ﷻ في سورة لقمان:﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(11)﴾.وفي سورة الأحقاف:﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(4)وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(5)وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ(6)﴾.

قوله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ(36)﴾

جملة (وآية لهم الليل) معطوفة على جملة (وآية لهم الأرض) .

و(نسلخ) مضارع سلخ، والأصل في السلخ أن يكون في الحيوان، وهو إزالة جلده وكشطه عنه؛ فاستعماله في إزالة ضوء النهار عن ظلام الليل هو على سبيل المجاز.

و(مظـــلمون) اسم فاعل من (أظلم) إذا دخل في الظلام كقول العرب: أصبح: إذا دخل في الصبح، وأشأم أو اعرق إذا دخل الشام أو العراق .

و(إذا): فجائـــية تدل على مفاجأة الظلام لسكان الأرض والمراد: اتصال الظلام بذهاب الضوء.

والفاء: تفريعية؛ فقد فرعت الدخول في الظلام على سلخ النهار من الليل.

والمعنى إن من الآيات الدالة على قدرة الله التي لا حد لها تعاقب الليل والنهار بحيث إذا ذهب النهار جاء الليل، وإذا جاء النهار ذهب الليل. كما قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا(62)** ﴾، وفي سورة الأعراف:﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ...54**﴾ وفي سورة الزمر: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى..**﴾ 6.

وبهـــذا التعاقـــب بـــين الليل والنهار يحصي الناس عدد الأيام والأسابيع والشهور والأعوام كما قال ﷻ في سورة الإسراء: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَـــا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ...**﴾ 12.

وإذا كـــان اللـــيل والنهار آيتين دالتين على قدرته التامة الشاملة ومن ثم قدرتـــه على البعث والنشور فإنهما أيضا تدلان على لطف الله بعباد، ورأفته بهم كما جاء في سورة القصص:﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِـــيَامَةِ مَـــنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ(71)قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ**

عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(73) ﴾.

قوله تعالى:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(37)﴾

(والشمس) معطوفة على (الليل) أي وآية لهم الشمس

وجملة ﴿تجري... ﴾ في موقع الحال أي وآية لهم الشمس في حال جريانها في مدارها المرسوم لها؛ وقد اكتشف العلماء أن للشمس دورتين تجري فيهما بسرعة هائلة: دورة حول محورها أي حول نفسها ودورة في المدار الذي خصصه لها موجدها، وهو الله عز وجل، وهي تشرق علينا كل يوم أول النهار، وتغرب آخره وتتحول في شروقها وغروبها من مكان إلى مكان من جوانب الأرض (وذلك في مرأى العين) وبذلك يطول النهار ويقصر، ثم يقصر النهار ويطول الليل، وتنقُّل الشمس في شروقها وغروبها هو الذي يفسر لنا التعبير القرآني المختلف من حيث الصيغ؛ فقد جاء في سورة المزمل قوله ﷻ ﴿رب المشرق والمغرب﴾، هكذا في صيغة المفرد، وجاء في سورة الرحمن قوله :ﷻ ﴿رب المشرقين، ورب المغربين ﴾ هكذا في صيغة المثنى وجاء في سورة المعارج: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ هكذا في صيغة الجمع.

وسبب ذلك اختلاف مطالع الشمس ومغاربها؛ فصيغة المفرد باعتبار الجهة الكلية للشرق والغرب دون مراعاة الفصول الزمنية والأيام.

وصيغة المثنى باعتبار مشرق الشمس ومغربها صيفا وشتاء، وصيغة الجمع باعتبار مشرقها ومغربها يوميا وأرضنا هذه التي نعيش عليها هي من مجموعة الكواكب

التسعة التي تدور حول الشمس.

وكما أن للشمس دورتين فإن للأرض دورتين أيضا دورة حول محورها يتكون من إتمامها الليل والنهار، ودورة في مدارها حول الشمس تتكون منها السنة الشمسية، واللام في ﴿لمستقرها﴾ يصح اعتباره بمعنى (إلى) كما يصح اعتباره تعليليا في معنى العاقبة والصيرورة

و(مستقر) اسم مكان أو زمان مشتق من فعله (استقر) للدلالة على مكان الاستقرار أو زمانه. وعليه فإذا كان المقصود مكان استقرارها فهو مكان غروبها كل يوم وإذا كان المقصود زمان استقرارها فهو يوم القيامة حين ينتهي جريها، وينطفئ نورها، كما قال الله ﷻ في سورة التكوير﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2)**﴾.

ويرجّح هذا التأويل قوله ﷻ في سورة الزمر: ﴿**...وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى (6)** ﴾. و الأجل المسمى هو الوقت المعين الذي ينتهي فيه جريهما وهو يوم القيامة. والله اعلم بمراده.

والإشارة بـ﴿ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ إلى جري الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار.

وتقدير الشيء جعله يسير وفق تنظيم مضبوط .

و﴿العزيز العليم ﴾ من أسماء الله الحسنى وقد جيء بهما هنا في هذا التعقيب لأن العزة أي القوة والغلبة هي التي تتناسب مع تسخير الشمس والقمر، وإخضاعهما لمشيئته تعالى، ولأن العلم الإلهي المحيط هو الذي يتناسب مع دقة النظام الكوني البديع. والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(38)﴾

﴿والقمـــر ﴾ معطوف على (الشمس)مرفوع، وهي قراءة نافع، وقرئ منصوبا عـــلى أنه مفعول بفعل محذوف يفسره ما بعده فهو من باب الاشتغال أي قدرنا القمر، وهي قراءة عاصم.

و﴿منازل ﴾ ظرف مكان منصوب، أي قدرنا سير القمر في منازل.

ومنازل القمر: مواقعه، وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل كل ليلة في واحد منها، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما، وليلة واحدة، إن كان تسعة وعشرين. وتقدير القمر في منازله: جعل سيره فيها بتقدير مضبوط وتنظيم محكم.

والقمر -في أول ظهوره- يكون هلالا (دقيقا مقوسا) ثم يستمر في الزيادة حتى تـــتم استدارته، ويكتمل نوره المستمد من الشمس في الليالي البيض وهي الليالي الثالـــثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة.وحينئذ يسمى بدرا، وبعد منتصف الشهر يبدأ في التناقص والتقوس حتى يصير شبيها بالعرجون كحالته الأولى.

وعرجون النخلة هو القضيب الذي يخرج من قلب النخلة حاملا القنو أو العِذق الذي يتكون من الشماريخ الحاملة للتمر.

وبإتمـــام القمر دورته في منازله يتكون الشهر القمري وبتمام اثني عشر شـــهرا تتكون السنة القمرية وبذلك نعرف عدد الشهور والسنين والحساب كما جـــاء في القرآن الكريم : ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء، والقمر نورا، وقدره مـــنازل، لتعـــلموا عدد السنين والحساب** ﴾ سورة يونس، و﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ سورة البقرة 188.

وقد قال رسول الله ﷺ:(جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيتهن وأفطروا لرؤيتهن، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما). رواه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله تعالى:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(39)﴾

﴿ينبغي﴾ مضارع ﴿انبغي﴾ على وزن (انفعل) الذي يدل على المطاوعة، فالعرب يقولون: بغي الشيء- يبغيه إذا طلبه فانبغى له بمعنى تحقق له ما طلبه، فإذا أردنا نفي الانبغاء للشيء قلنا لا ينبغي له أي لا يتأتى ولا يتيسر، فمعنى ﴿**لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر**﴾: لا يتأتى لها ولا يتسهّل أن تلحق بالقمر وتصطدم به.

وقد وردت هذه الصيغة (لا ينبغي) في القرآن الكريم -غير ما مرة- بمعنى لا يتيسر ولا يليق. ومن ذلك قوله ﷻ في آخر هذه السورة:﴿ **وما علمنا الشعر، ما ينبغي له (68)**﴾ أي لا يليق بمقامه ولا يتسهل له لو أراده.

وفي سورة مريم:﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا(92)﴾، وفي سورة الفرقان: ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ **18**. أي ما كان يليق بنا.

وفي الجملتين الأوليين ما يسمى في علم البلاغة بالاكتفاء والتقدير في الجملة الأولى: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس وذلك لما بينهما من الأبعاد السحيقة علاوة على أن كل واحد منهما رسم له خالقه جل وعلا مدارا خاصا به لا يتعداه إلى يوم القيامة حيث تنفطر السماء، وتنشق وتتناثر النجوم بسبب القضاء على الجاذبية التي تربط بعضها ببعض وهو مصداق قوله في سورة الانفطار: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ(1)وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(2)** ﴾.

وقـــد قدر العلماء المختصون المسافة بين أرضنا هذه وشمسنا بنحو ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال، وقدروا المسافة بين الأرض والقمر بنحو مئتين وأربعين ألفا من الأميال؛أما البعد بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم إلينا من المجموعات الأخرى فقد قدروه بنحو أربع سنوات ضوئية. ومعلوم أن سرعة الضوء قدرت بنحو مئة وستة وثمانين ألف ميل في الثانية.

نعم نحن نرى نجوم السماء متقاربة جدا، وصغيرة جدا، ولكن بعدها الهائل عنا هو الذي يصورها لنا كذلك، ولنضرب لذلك مثلا بضعة سفن ضخمة متناثرة في المحيط الهادي أو الأطلسي ألا تراها من بعيد كنقط سوداء؟.

ونعود إلى التقدير في الجملة الثانية ﴿**لا الليل سابق النهار،ولا النهار سابق الليل**﴾ فلا يأتي أيّ منهما قبل وقته المحدد له. الأمر الذي يدل على النظام الدقيق، والصنع البديع الذي يتجلى فيه الإتقان والإعجاز كما قال الله –تعالى– في سورة النمل:

﴿**...صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ **88**.

﴿ **وكل في فلك يسبحون** ﴾

(الفلك) المدار الذي يدور فيه النجم. وجمعه أفلاك.

والتنوين في (كل) تنوين العوض، فهو عوض عن المضاف إليه المحذوف، والتقدير كـــل واحد من الشمس والقمر والأرض وبقية النجوم يسبح في فلكه كما يسبح الإنسان أو السمك في الماء.

وحـــق الضـــمير في ﴿يســـبحون ﴾ أن يكون ضمير المثنى فيقال (يسبحان) لأن المذكـــور قبله مثنى، وهو الشمس والقمر. ولكن أُتي بضمير الجمع لإفادة التعميم أي تعميم السبح لكل الكواكب. وقد نزل غير العقلاء منزلة العقلاء، وإلا فإن ما لا يعقل يعود إليه ضمير الإناث فيقال (يسبحن).

هـــذا إلى أن نســـق الفواصل يلح على استعمال صيغة جمع الذكور ليزداد الكلام حلاوة وطلاوة.

ومـــن الخصـــائص اللفظية الموجودة في جملة :كل في فلك يسبحون. أنها تقرأ من آخـــرها كمـــا تقرأ من أولها.ومثلها في ذلك قوله ﷻ في سورة المدثر:﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3)﴾.

قوله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(40)وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(41)وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ(42)إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(43)﴾

لمناســـبة: بعد أن ذكر الله ﷻ بعض آياته في الأرض متضمنة بعض مِنَنه على بني آدم ﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾ وذكر بعض آياته في السماء وما فيها من منافع للناس ﴿ وآيـــة لهـــم الليل نسلخ منه النهار... ﴾ ذكر بعض آياته في البحار مبينة لطفه بعباده ورأفته بهم فقال ﴿وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم في الفلك المشحون... ﴾، وبين لآية السابقة ﴿وكل في فلك يسبحون ﴾ والآيات اللاحقة مناسبة ظاهرة؛ فمنظر لنجوم السابحة في الفضاء الواسع يشبه منظر السفن التي تمخر عباب الماء.

شرح الألفـــاظ:

﴿**ذريـــاتهم** ﴾ هكـــذا في صيغة الجمع، وهي قـــراءة نافـــع وقرئت في صيـــغة لمفـــــرد (ذريتهم) وهي قراءة عاصم والذرية في الأصل تطلق على الأولاد، ثم صـــارت تطلـــق على الرجال أيضا، والمراد بهم هنا ذريات آدم عليه السلام وإنما ضيفت إلى العباد المذكورين قبلا، ومنهم قريش لأنهم من جنسهم.

﴿**الفلـــك المشـــحون** ﴾ السفينة المملوءة بالناس والحيوان والأمتعة، ولفظ الفلك يســـتعمل للواحـــد، كما في هذه الآيـــة، ويستعمل للجمع كقوله –تعالى– في سورة فاطـــر: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾13.

و﴿ المشـــحون ﴾ اسم مفعول مصوغ من شحن – يشحن. يقال: شحن المركب بكـــذا إذا حملـــه فيه وامتلأ به ومن ذلك كلمة (الشحناء) وهي العداوة التي تملأ النفس.

والظاهـــر أن المـــراد بالفلك –هنا– فلك سيدنا نوح عليه السلام الذي ألهمه الله صنعه، وأمره أن يحمل فيه من كل زوجين اثنين قبل أن يعاقب الكافرين من قومه بالطوفـــان، كما جاء في قوله :﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(119)ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ(120)**﴾ سورة الشعراء 119-120.

وهؤلاء المؤمنون بنوح، الناجون من الغرق هم –والله أعلم– المعنيون بالذريات في الآية المذكورة.

﴿من مثله﴾: من شبيهه. وما المراد من شبيهه؟

يحـــتمل أن يـــراد به ما صنعه الناس من السفن بعد سفينة نوح عليه السلام، كما يحـــتمل أن يـــراد به الإبل التي تقطع المسافات الشاسعة في رمال الصحراء، وقد وصفها العرب بأنها سفن الصحراء. قال الله –تعالى– في سورة الزخرف:﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12)لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13)**﴾

وأيامّا كان المراد بـــ(من مثله) فالواجب أن نحمد الله على ما أنعم به علينا –معشر بـــني آدم– بإلهامنا صنع السفن من الألواح، وبتسخير البحار لحملها وأن نشكر

على ما تفضل به علينا من خلق الإبل لنا التي تحملنا وتحمل أثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس.

و (الصـــريخ): رفـــع الصـــوت. ومما هو معروف أن الذين يشرفون على الغرق يستغيثون بغيرهم، رافعين أصواتهم ليسمعهم هؤلاء المستغاث بهم فينقذوهم.

والمســـتغاث بهم –أيضا– يرفعون أصواتهم ملبين طلبهم ، والمراد بالصريخ –هنا– هم المستغاث بهم.

﴿ينقذون﴾ فعل مضارع مبني لما لم يسم فاعله،أي ينقذهم غيرهم وينجيهم من الغرق ﴿ إلا رحمة منا، ومتاعا إلى حين ﴾. إلا: أداة استثناء والاستثناء هنا مفرغ؛ فما بعد (إلا) يكون موقعه من الإعراب على حسب ما يقتضيه العامل قبلها. وبنـــاء عليه فـــ﴿رحمة﴾منصوب على أن مفعول لأجله.

و﴿متاعا﴾ معطوف عليه. والمتاع: التمتيع بالحياة والنعمة.

ومعنى الجملة: أن الله ﷻ يخبر بأنه إذا أراد إنقاذهم من الغرق فلا ينقذهم إلا من أجل رحمته بهم، وتركهم يتمتعون بالحياة إلى أجل مسمى أي إلى مدة معينة وهي مدة أعمارهم التي قدرها لهم.

وبدهي أن رحمة الله بهؤلاء تتجلى في إسكان البحر وتهدئته لهم ليسلموا.

ونظير هذه الآيات قوله ﷻ في سورة الإسراء:﴿... **رَبُّكُمْ الَّذي يُزْجي لَكُمْ الْفُلْكَ في الْبَحْرِ لتَبْتَغُوا منْ فَضْله إنَّهُ كَانَ بكُمْ رَحيمًا(66)وَإذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ في الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإنْسَانُ كَفُورًا(67)أَفَأَمنتُمْ أَنْ يَخْسـفَ بكُـمْ جَانبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسلَ عَلَيْكُمْ حَاصبًا ثُمَّ لَا تَجدُوا لَكُمْ وَكيلًا(68)أَمْ أَمنتُمْ أَنْ يُعيدَكُمْ فيه تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسلَ عَلَيْكُمْ قَاصفًا منْ الرِّيح فَيُغْرقَكُمْ بمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا به تَبيعًا(69)**﴾ .

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(44)وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(45)﴾

المناسبة:

في الآيات السابقة (من: وآية لهم الأرض...إلى: حين) بين الله -تعالى- لعباده الأدلة القاطعة الواضحة على وحدانيته وقدرته وحكمته ودقيق صنعه وعظيم رحمته ولطفه بهذا الإنسان، وفي هاتين الآيتين بين عدم انتفاعهم بالآيات القرآنية التي تتلى عليهم صباح مساء، وعدم اتعاظهم بما حصل للأمم السابقة من عقوبات إلهية جزاء استكبارهم، وتكذيب رسل ربهم إليهم، وهاهم يشاهدون آثار التدمير الذي أصاب قوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ويمرون عليها، وهم عنها غافلون، كما جاء في غير ما آية من القرآن الكريم، منها ما نقرؤه في سورة غافر:

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِ وَاقٍ(21)ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِ شَدِيدُ الْعِقَابِ(22) ﴾ .

شرح الألفاظ:

﴿قيل﴾: فعل ماضي مبني لما لم يسم فاعله. والقائل هو الله ﷻ بواسطة رسو الأمين.

وضمير الغائب في (لهم) يعود إلى الكفار.

﴿اتقوا﴾: احذروا.

﴿مـــا بـــين أيديكم﴾: ما هو قدامكم تشاهدونه بأعينكم وهو آثار العقاب الذي أصاب الأقوام الذين كذبوا رسلهم.

﴿ ومـــا خلفكم ﴾: ما وراءكم من العذاب الأليم الذي سوف يصيبكم في الدار الآخرة.

و ﴿لعل﴾: حرف يفيد الترجي أي إذا اتقوا ترجى لهم رحمة الله المفهومة من فعل ترحمون المبني لما لم يسم فاعله.

و ﴿إذا﴾: شرطية فعل شرطها (قيل)، وجوابه محذوف (يفهم من الآية الموالية: معرضين)؛ وتقدير الكلام: وإذا قيل لهم...أعرضوا.

والإعراض عن الشيء: رفضه، وعدم قبوله.

﴿من آية﴾ آية: اسم مجرور لفظا بمن الزائدة من أجل التأكيد وإفادة العموم. وهو مرفوع تقديرا على أنه فاعل مؤخر للفعل (تأتي) وتقدير الكلام: وما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا معرضين عنها، ورافضين لها.

وقدم الجار والمجرور (عنها) مراعاة للفواصل واهتماما بالآيات التي يدل عليها ضمير الغائب في (عنها) .

وفحـــوى الكـــلام في الآية الأخيرة أن إعراض الكافرين عن آيات الله هو شأنهم الدائم، ودأبهم المستمر، سواء أكانت آيات قرآنية أو آيات كونية تتجلى في خوارق العادات والمألوفات.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة يوسف:﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106)**﴾ ؛ وقوله ﷻ في سورة الصافات:﴿**... وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(13)**﴾ .

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(46)﴾.

في قوله ﷻ قبلاً:﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ...﴾ إيماء إلى أنهم تركوا حق الخالق في تعظيمه واتقاء عذابه مع أنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة كما جاء في سورة المدثر 55، وفي قوله –هنا–﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا... ﴾ إشارة إلى تركهم حق الخلق من حيث إنهم أمروا بالإنفاق على المحاويج فلم ينفقوا.

وضمير الغائب في (لهم) وفي (أنفقوا) عائد إلى كفار قريش. والقائل المفهوم من فعل (قيل) المبني للمجهول هو الله ﴾ الذي أمر بالإنفاق في آيات كثيرة على فقراء المؤمنين...

والمعنى: إذا أمر الله ﴾ كفار قريش بالإنفاق على المساكين، أو قال المساكين لأغنياء كفار قريش:أعطونا مما أعطاكم الله أجابهم هؤلاء بقولهم: هل نطعم الذي لو شاء الله إطعامه لأطعمه، بحيث لا يحتاج إلينا؟

ثم يحكم هؤلاء الكافرون على المؤمنين بالضلال المبين أي الخطأ البين الواضح وهو قولهم لهم:﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ .

وهذه الجملة المصدرة بـ(إن) النافية المتبوعة بـ(إلا) الاستثنائية تفيد الحصر، أي هؤلاء الذين نصحوهم بالإنفاق محصورون في الضلال بحيث إن الضلال محيط بهم من كل الجوانب وهو ما تفيده –أيضا– (في) الدالة على الظرفية.

ومما يروى في هذا الموضوع أن بعض جبابرة مكة كان إذا سأله المسكين قال له: اذهب إلى ربك فإنه أولى مني بك، قد منعك الله أنطعمك؟!

ويـــروى أيضا أن أبا بكر الصديق –رضي الله عنه– كان يطعم مساكين المسلمين، فلقـــيه أبو جهل، فقال :يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم قـــال: فمـــا بالـــه لم يطعمهم؟ قال: ابتلى قوما بالفقر وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصـــبر، والأغنياء بالإعطاء فقال أبو جهل: والله يا أبا بكر إن أنت إلا في ضلال مبين أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء، وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت!

والـــذي جعل جبابرة قريش يتهكمون بالمسلمين بهذا القول أنهم كانوا يسمعونهم يردون كل شيء إلى مشيئة الله فيقولون –مثلا– الله يرزق من يشاء ويمنع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء الخ فيردون عليهم: مادام الله هو الذي يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء فقد شاء أن يعطينا، وشاء أن يمنعهم، فلا ينبغي أن نخالف مشيئته بإعطائنا إياهم! ومن ثم فإنكم أيها الصابئون ضالون عن وجه الصواب!

والحقيقة التي غابت عن هؤلاء الجاهلين أن الله ﷻ شاء لبني آدم أن يستخلفهم في الأرض ويستعمرهم فيها كما ورد في القرآن الكريم على لسان نبي الله صالح مخاطبا قومه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود 60.

وذلك الاستخلاف في الأرض، والاستعمار فيها يقتضي التفاوت بين البشر في الاستعدادات الفطرية، والميول النفسية، ولولا هذا التفاوت في الطباع لما أمكن الـــناس أن يحققـــوا مشيئة الله فيهم وهي اختيارهم لعمارة الأرض، تلك العمارة الداعـــية إلى الـــتعاون والتكافل وتسخير بعضهم لبعض كما قال الله –تعالى– في ســـورة الزخـــرف: ﴿ **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾32. ولكن يوجد في كل مجتمع إنساني من لا يقدر على العمل لعاهة به أو لا يجد فرصة للعمل لأن البيئة التي يكونون فيها لم توفـــرها لهم فتصيبهم الفاقة فجعل الله لهؤلاء المحتاجين حقا في أموال الواجدين،

ودعـــا الأغنـــياء إلى التنازل عن بعض أموالهم لفائدة الفقراء ليحصل التكافل بين الإخـــوة في الديـــن والإنسانية، وتتوثق الروابط الاجتماعية بين الطبقات البشرية، وتنعدم الأحقاد التي ينشئها الشح بين الناس.

وهكذا يبتلى الله بعض الناس بالغنى ليتبين مدى شكرهم له، ويبتلي بعضهم بالفقر ليرى صبرهم على ما أصابهم كما جاء في كلام أبي بكر ﷺ لأبي جهل لعنه الله.

ومن أوجه البلاغة في الآية الكريمة:

1-الإيحاء بأن ما في أيدي أولئك الأغنياء هو من رزق الله وقد أنعم به عليـــهم؛ فهو حين يدعوهم إلى الإنفاق على الفقراء إنما يدعوهم إلى إعطاء شـــيء ممـــا اســـتخلفهم فيه كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الحديد:7.

و(مـــن) الـــتي أدغمت نونها في (ما) فصارت (مما) هي تبعيضية أي تدل على إعطاء بعض المال وليس جميعه .

2-الإظهار في مقام الإضمار في قوله –تعالى-: ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمـــنوا﴾ فلو لم تكن هناك نكتة بلاغية لجاء الكلام هكذا: ﴿قالوا﴾ اكتفاء بالضـــمير العائد إلى الذين كفروا ولكنه –تعالى- نص على كفرهم ليفيد أن الذي زين لهم عدم الإنفاق هو الكفر، وفي ذلك ذم لهم وتوبيخ.

3-قـــيل للكفار: أنفقوا، فكان جوابهم: أنطعم... عوض: أننفق... فدل ذلـــك عـــلى أن المقصـــود الأول من الإنفاق هو الإطعام فالإنفاق أعم من الإطعام لأنه يشمله ويشمل غيره من وجوه الإنفاق والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(47)مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(48)فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(49) ﴾.

المناسبة: بين الله ﷻ في الآيات السابقة أن الكفار أعرضوا عن تقوى الله حين أمروا بها ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ... ﴾ ثم أخبر بأنهم امتنعوا عن الإنفاق على المحتاجين لما طولبوا به ﴿ وإذا قيل لهم انفقوا... ﴾ وفي هذه الآيات أوضح السبب في عدم تقواهم، وعدم إنفاقهم، وهو التكذيب بيوم البعث والنشور يوم يحاسبون ثم يجازون، وكشف عن أحوال الناس حين تقع الصيحة الواحدة التي يموت عندها كل حي.

التفسير:

﴿متى هذا الوعد؟﴾: الوعد هنا معناه الموعود به أي ما كان الرسول ﷺ والمؤمنون يعدون به الكافرين من مجيء يوم يبعث فيه الناس من قبورهم للحساب والجزاء حسبما ورد في القرآن الكريم.

والجملة استفهامية، الغرض منها الاستهزاء، واستبعاد الحياة الثانية، وتكذيب المخبرين بها أي إن كنتم صادقين في قولكم فأخبرونا عن الوقت الذي يجيء فيه ذلك اليوم.

وقد ورد في القرآن الكريم انهم كانوا يستعجلون قيام الساعة أيضا قال الله في سورة الشورى: **﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(18) ﴾** .

﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾

﴿ينظرون﴾: ينتظرون؛ فهو من النظرة بمعنى الانتظار والترقب لا من النظر بمعنى الإبصار والمشاهدة.

ومن الأول قوله ﷻ في سورة الزخرف:﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(66)**﴾ ، وقوله ﷻ في سورة البقرة:﴿**... وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾179.

ومن الثاني قوله ﷻ في سورة الغاشية:﴿ **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)** ﴾ وقوله ﷻ في سورة القيامة :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23)﴾ و﴿ الصيحة﴾: الصوت الشديد العالي يصدر من الإنسان وغيره، وهي –هنا- والله أعلم النفخة الأولى التي ينفخها الملك الموكل بها في الصور فتنتهي بها الحياة الدنيا تدعى نفخة الصعق لأن الناس يصعقون بها فيموتون كما قال الله ﷻ في سورة الزمر: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(65)** ﴾.

وقد جاءت الصيحة أيضا في القرآن الكريم بمعنى صيحة العذاب التي يصيب بها الله ﷻ القوم الكافرين كقبيلة ثمود مثلا التي يقول الله فيها: ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين...** ﴾ هود 66.

تنبيه: السائلون لم يكونوا ينتظرون الصيحة فكيف أجابهم الله –تعالى- بأنهم ينتظرونها؟

نبه على هذا العلاّمة الألوسي في تفسيره فقال: وعبر بالانتظار نظرا إلى ظاهر قولهم:متى هذا الوعد؟ أو لأن الصيحة لما كانت لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها.

﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾

تأخذهم: تملكهم، كما يأخذ العدو عدوه فيفتك به .

يخصمون: أصله يختصمون بمعنى يتجادلون ويتنازعون فأبدلت التاء صادا ثم أدغم أحد الصادين في الآخر تخفيفا وقد اختلف القراء في كيفية النطق بصيغة هذا الفعل فرواها ورش عن نافع بتشديد الصاد مكسورة مع فتح الخاء. ورواها قالون عن نافع أيضا بتشديد الصاد المكسورة مع سكون الخاء سكونا مختلسا، أي بين السكون والفتح، ورواها حفص عن عاصم بتشديد الصاد المكسورة مع كسر الخاء إلى آخر ما هنالك من قراءات لا يقرأ بها عندنا.

﴿فلا يستطيعون توصية، ولا إلى أهلهم يرجعون﴾.

الفاء: تفريعية، فرعت جملة (لا يستطيعون توصية) على جملة ﴿**تأخذهم وهم يخصمون**﴾ أي عدم قدرتهم على التوصية مفرع ومرتب على أخذهم فجأة وإماتتهم.

و﴿التوصية﴾ مصدر الفعل:وصّى. يقال:وصّى فلان فلانا بشيء: إذا عهد به إليه،وأمره بالعناية به ومنه قوله ﷻ في سورة البقرة:﴿ **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ**﴾ 131 وقوله في سورة الأحقاف ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا** ﴾**14**.

وتنكير المصدر ﴿توصية﴾ يفيد العموم أي لا يستطيع أحدهم أن يوصي بأيّة وصية مهما كانت.

وجملة ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ معطوفة على جملة (لا يستطيعون) أي لا يستطيعون توصية مّا ولا يرجعون إلى أهلهم، كما يرجع المذعور إلى أهله ليتفقد أحوالهم، أو ليحتمي بهم بل يموتون في أماكنهم لا يبرحونها.

وقد صور لنا رسول الله ﷺ السرعة التي يفاجئ الناس بها قيام الساعة، وهم منهمكون في أعمالهم بقوله: (لَتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقي منه،ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بِلَبن لقحته (وفي رواية نعجته) فلا يطعمه،ولتقومن الساعة وقد

رفع أُكلته إلى فيه (أي فمه) فلا يطعمها) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(50)﴾.

﴿نفخ في الصور﴾ الصور: شيء يشبه القرن ينفخ فيه الإنسان أي يطلق فيه الريح من فمه فيحدث صوتا قويا ويسمى أيضا البوق؛ والصور –هنا– من صنع الله ﷻ والمعلوم من القرآن الكريم أن هناك نفختين في آخر الدنيا أولاهما نفخة الصعق أو الفزع يصعق بها الأحياء أي يموتون وهي المعنية بقول ﷻ في هذه السورة: ﴿**ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون**﴾.

وثانيتهما نفخة البعث التي يبعث بها الأموات من قبورهم فيقومون أحياء، وهي المعنية في هذه الآية، وبين النفختين مدة لا يعلمها إلا الله عز وجل.

وبدهي أن النفخ في الصور إنما يقع في المستقبل البعيد أي في آخر الدنيا فكان الأصل أن يخبر عنه بصيغة المضارع الذي يدل على حصول الشيء في المستقبل فيقال: ينفخ في الصور، كما جاء في سورة النمل عند قوله ﷻ ﴿**ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وكل آتوه داخرين**﴾ ولكن عدل إلى صيغة الماضي الذي يدل على حصول شيء في زمن مضى قبل التكلم فقيل ﴿نفخ﴾ لإفادة التحقيق أي تحقيق وقوع النفخ.

ونظير ذلك قوله ﷻ في مفتتح سورة النحل: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ بدلا من ﴿سوف يأتي أمر الله﴾.

﴿**فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون**﴾.

الفاء تفريعية و(إذا) هنا فجائية تدل على سرعة وقوع مضمون الجملة التي بعدها، وهو سرعة خروج الأموات من قبورهم بدون توقع منهم.

والضـــمير: (هم) يعود إلى معلوم من المقام، وهم المقبورون ومنهم هؤلاء الذين نزلت فيهم تلك الآيات الآنفة الذكر.

تنبـــيـــه: قـــد يقال: إن كثيرا من الأموات لم يقبروا ولن يقبروا كالذين أكلتهم السباع أو احترقوا وصاروا رماداً أو التقمهم الحوت. والجواب أن المراد بالمقبورين الذين من شأنهم أن يقبروا، ولم لم تكن لهم قبور.

و﴿الأجداث﴾ جمع جدَث (ومثله الجدف) وهو القبر.

و﴿ينســلون﴾:مضارع: نسل يقال:نسل الذئب أو الإنسان –ينسل- نسلانا بمعنى أسرع؛ ونظير ذلك قوله في سورة الأنبياء: ﴿**وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ(96)**﴾.

ومـــن نظائـــر هـــذه الآية قوله ﷻ في سورة المعارج :﴿ **...يَوْمَ يَخْرُجونَ مِنْ الْـــأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ(43)**﴾ ، وفي سورة ق: ﴿ **...يَوْمَ يَسْـــمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(42)إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(43)يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(44)**﴾.

قوله تعالى:

﴿**قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(51)**﴾

الـــنفخ في الصور وما ينشأ عنه من خروج الناس من قبورهم أحياء يثير سؤالا في نفـــوس السامعين، مؤداه: ماذا يقول أولئك المنكرون حين يرون ما كانوا ينكرونه حقـــيقة واقعـــة يستحيل إنكارها؟ فجاءت هذه الآية مستأنفة استئنافا بيانيا لتبين للسائلين ما يقوله المنكرون، وهو قولهم: ﴿ ياويلنا! ...﴾ وهذه الجملة يستعملها إما الواقع في مصيبة، وإما المتحسِّر على خير فاته.

والويل: الهلاك وسوء الحال، وهو معنى من المعاني ليس من شأنه أن ينادى ولكنه نزّل منزلة من يسمع ويجيب فنودي بحرف النداء (يا) كأنهم يقولون: يا هلاكنا! هذا أوانك

ويحتمل أن حرف (يا) للتنبيه كأنهم ينبه بعضُهم بعضا للهلاك المقبل.

واستعملت صيغة الماضي ﴿قالوا ﴾ بدلا من صيغة المضارع ﴿يقولون﴾ لتحقيق وقوع قولهم أي قولهم هذا محقق...

(من بعثنا من مرقدنا؟)

هي جملة استفهامية تحكي سؤالهم بنصه الذي يلفظونه في ذلك الموقف؛ يتساءلون عن الذي بعثهم من مرقدهم ذاك.

و المرقد: يحتمل أنه مصدر ميمي على وزن (مفعل) بمعنى الرقاد كما يحتمل كونه اسم مكان أيضا أي مكان الرقاد وهو القبر.

ويأتيهم الجواب:﴿ هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون﴾ ومن هو المجيب ؟ فيه احتمالات:

قد يكون هو الله ﷻ أو ملائكته أو المؤمنون.

يتلقون الجواب بأن خروجهم هذا من قبورهم هو ما كانوا يكذبون به في الدنيا.

وقد يكون المجيب المشركين أنفسهم حين يتوبون إلى رشدهم فيقول كل واحد منهم في نفسه، أو يقول بعضهم لبعض ﴿هذا ما وعد الرحمن... ﴾ اعترافا بخطئهم في إنكار البعث، وندما على عدم تصديقهم رسل الله إليهم.

ونظير هذه الآية قوله ﷻ في سورة الصافات:﴿**وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(20)**﴾ **فيقال لهم:﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(21)** ﴾.

ولِمَ عُدل عن اسم الجلالة (الله) إلى اسم (الرحمن) في قولهم هذا ما وعد الرحمن؟

إذا كان الجواب من الله ﷻ أو الملائكة أو المؤمنين ففحواه توبيخ الكفار على إنكارهم اسما من أسماء الله الحسنى وهو (الرحمن) وعدم الاعتراف به حينما كانوا في الدنيا وندمهم على ذلك.

قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ الفرقان 60.

وإذا كان من المشركين أنفسهم فمعناه التحسر على إنكارهم لهذا الاسم والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(52) ﴾

الضمير في ﴿كانت﴾ يعود إلى النفخة الثانية المفهومة من ﴿ ونفخ في الصور﴾ وهي المقصودة بالصيحة المذكورة في صدر الآية.

و من قرأ ﴿صيحة﴾ بالنصب جعلها خبرا لـ(كان)، ومن قرأها بالرفع جعلها فاعلا لـ(كان) التامة التي يتم معناها بفاعلها.

وجملة ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ تفيد الحصر لأنها مبدوءة بـ(إن) النافية المتبوعة بـ(إلا) الاستثنائية أي ما كانت تلك النفخة التي ينفخها إسرافيل إلا صيحة واحدة لا تتكرر في مرة أو مرتين.

والفاء تفريعية؛ فقد فرعت مضمون الجملة التي بعدها على مضمون الجملة التي قبلها، أي جمع الناس للحساب مفرع على الصيحة الواحدة.

و(إذا) فجائية، تفيد أن ما بعدها يقع للناس فجأة أي بغتة على غير توقع منهم.

و﴿جميع﴾ على وزن (فعيل) بمعنى مفعول أي مجموعون و ﴿لدينا﴾ بمعنى عدنا

و﴿محضرون﴾ اسم مفعول من (أحضر) المبني للمجهول، أي يحضرهم الله ﷻ للمحاسبة... ومعنى الآية أن إحضار الناس –وهم مجموعون- إلى المحشر من أجل محاسبتهم يقع في مثل لمح البصر، كما قال الله ﷻ في سورة النحل: ﴿ **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(77)** ﴾.

قوله تعالى:

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(53)﴾

المراد بـ﴿اليوم﴾ يوم الجزاء في الدار الآخرة.

وقد أخبر الله -تعالى- في هذه الآية أن أي مقدار من الظلم لا ينال أية نفس في يوم الجزاء بحيث لا يجازى الناس إلا جزاء وفاقا لما كانوا يفعلونه في الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شر فشر، فهناك العدل المطلق لا ينقص من حسنات المحسنين، ولا يزاد في سيئات المسيئين.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة غافر:﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(17)**﴾.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(54) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ(55) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ(56) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ(57)﴾

المناسبة:

بعد أن ذكر الله ﷻ أحوال الناس بعد البعث، وما يلقونه من جزاء عادل شرع يذكر أحوال الذين كانوا يحسنون في دنياهم ثم الذين كانوا يسيئون.

شرح الالفاظ:

﴿شغل﴾ بضم فسكون (هي رواية ورش وقالون عن نافع) وبضمتين (هي رواية حفص عن عاصم): الشيء الذي يشغل الإنسان، ويصرفه عما سواه، سواء أكان مفرحا أم محزنا والمراد به -هنا- التمتع بنعيم الجنة، ولقاء الأحبة، وما يفيض عليهم

من رضوان الله مما يشغلهم عن الاهتمام بأهل النار.

﴿اليوم﴾: المراد به يوم القيامة، وهو مفهوم من سياق الكلام.

﴿فاكهون﴾: متنعمون مسرورون طيبو النفوس.

﴿الأرائك﴾: جمع تكسير، مفرده: أريكة، وهي السرير فوقه الحجلة، وهي الستارة التي تبنى فوقه كالقبة لتزيده جمالا وبهاء.

﴿فاكهة﴾: ما يؤكل من الثمار لأجل التلذذ والجمع فواكه ومنه قوله ﷻ في سورة المرسلات: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41)وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(42)** ﴾.

﴿يدعون﴾: يشتهون ويطلبون ويتمنون.

ومن ذلك قول العربي لصاحبه: ﴿ادّع علي ما شئت﴾ وقوله: ﴿فلان في خير ما ادعى﴾.

وقال الله ﷻ في سورة فصلت:﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)﴾.

التفسير:

﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾.

يخبر الله –تعالى– بأن أهل الجنة في ذلك اليوم –وهو يوم القيامة– يكونون مغمورين بأنواع المتعة التي تشغلهم عن التفكير فيما من شأنه أن ينغص عليهم عيشتهم الراضية المليئة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فهم بذلك مسرورون غاية السرور.

﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾

ومن تمام نعم الله على أهل الجنة انه يجمعهم مع زوجاتهم اللائي كن معهم في الدنيا، إضافة إلى ما أعده لهم من الحور العين.

وقد ورد في القرآن الكريم أنه يجمعهم –أيضا– مع من صلح من آبائهم وأولادهم وأزواجهم .قال الله –تعالى– في سورة الرعد:﴿... **جنات عدن يدخلونها، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار**﴾ 25.

ومن أسباب الراحة التي يعدها لهم ربهم الأرائك التي يتكئون عليها، وهم تحت ظلال الأشجار الوارفة الممدودة الدائمة التي لا تنسخها شمس كما هو معهود في الدنيا لأنه لا شمس هنالك.

﴿ **لهم فيها فاكهة، ولهم ما يدعون** ﴾.

في هذه الآية إخبار بأن الله ﷻ وفر لأصحاب الجنة فاكهة يتلذذون بأكلها، وقد جاء وصفها في سورة الواقعة بالكثرة، وعدم الانقطاع، وعدم المنع منها، وذلك في سياق ذكر النعم التي أكرم الله بها أصحاب اليمين:﴿ **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ(27)فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ(28)وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ(29)وَظِلٍّ مَمْدُودٍ(30)وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ(31)وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(32)لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ(33)وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ(34)** ﴾

كما في الآية إخبار بأن الله ﷻ يحقق لأصحاب الجنة ما يشتهونه في أنفسهم لأنفسهم، وما يطلبونه بألسنتهم. وياله من إكرام يستوجب كل الحمد.

﴿ **سلام قولا من رب رحيم** ﴾.

من وجوه الإعراب لكلمة ﴿سلام﴾ أنها مبتدأ و ﴿قولا﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله المحذوف، و ﴿من رب رحيم﴾ جار ومجرور ونعت ومنعوت خبر المبتدأ.

وتقدير الكلام: سلام –يقال لهم قولا– من رب رحيم

ويصح أن تكون كلمة ﴿سلام﴾ بدلا من الموصول وصلته قبلها: ﴿ما يدعون﴾ أي الشيء الذي يدعونه هو سلام صادر من رب رحيم.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿ ...تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾.

ونقرأ في سورة الرعد أن الملائكة –أيضا– يحيون أهل الجنة بالسلام: ﴿**...والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار** ﴾.

قوله تعالى:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(58)﴾

هذه الجملة معطوفة على جملة:﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ أي سلام يقال لأهل الجنة صادر من رب رحيم، ويقال لأهل النار﴿ امتازوا أيها المجرمون﴾ عن المؤمنين و﴿ امتازوا﴾: فعل أمر مسند إلى واو الجماعة. ماضيه: امتاز الذي هو مطاوع الفعل الثلاثي(ماز) يقال في اللغة ماز الشيء عن غيره –يميزه– فامتاز أي اعتزل وانفصل والمعنى أن الله ﷻ يأمر المجرمين بأن يعتزلوا عن المؤمنين.

ومناداة المشركين الكافرين بوصف الإجرام لبيان العلة في أمرهم بالامتياز عن المؤمنين وهي الإجرام الذي كانوا يرتكبونه في الدنيا، والذي كان يتمثل في الافتراء على الله وعبادة غيره وتكذيب رسله.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة يونس:﴿ ويوم نحشرهم جميعا، ثم نقول للذين أشركوا:مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزيلنا بينهم ﴾ أي فرق الله بين المشركين ومعبوداتهم من جهة والمؤمنين من جهة أخرى. والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(59) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(60) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(61)﴾

العهد المفهوم من الفعل المضارع (أعهد) معناه الوصاية .

يقال: عهد إليه بكذا: إذا أوصى به إليه، ومنه قوله ﷻ في سورة طه: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا(115)**﴾ والمراد بالعهد –هنا– والله أعلم: ما وصى به الله عباده بواسطة رسله إليهم، وهو أن يعبدوه وحده ولا يشركوا معه شيئا.

والاستفهام المنفي في ﴿ألم أعهد﴾ يفيد التقرير.

و﴿أن﴾ في ﴿أن لا تعبدوا﴾ تفسيرية؛ فقد فسرت الإبهام في الفعل: ﴿أعهد﴾

وجملة﴿إنه لكم عدو مبين﴾ معترضة بين جملة﴿ألا تعبدوا﴾ وجملة﴿أن اعبدوني﴾

وفائدة هذا الاعتراض بيان السبب في نهي بني آدم عن عبادة الشيطان،وهو عداوته لهم

و﴿مبين﴾ اسم فاعل من فعل (أبان) بمعنى بان وظهر . وعبادة الشيطان طاعته فيما يزينه لهم من كفر ومنكرات ، وعبادة الله: طاعته والخضوع لشرعه.

والإشارة في ﴿ هذا صراط مستقيم﴾ إلى العهد الذي عهد به إلى بني آدم. وهو عبادته وحده وعدم عبادة الشيطان.

وقد شبه الالتزام بذلك العهد بالسير على صراط مستقيم من حيث إنه يؤدي قطعا إلى المقصود، والمقصود هنا هو رضا الله الذي يهيء من يظفر به إلى السعادة الأبدية.

و﴿الجبل﴾ الجمع العظيم من الناس، أو الأمة ومثله: (الجبلة) قال الله ﷻ في سورة

الشعراء:﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ(184)﴾

والصيغتان مشتقتان من فعل (جبل) بمعنى خلق .

و﴿تعقلون﴾ تدركون بعقولكم وتفهمون إضلال الشيطان إياكم، والاستفهام في ﴿ أفلم تكونوا تعقلون﴾ للتوبيخ، والفاء: تفريعية؛ فقد فرعت مضمون الجملة التي بعدها على مضمون جملة محذوفة قبلها. وتقدير الكلام والله أعلم:أعميت قلوبكم فلم تتفطنوا إلى إضلال الشيطان إياكم .

ومما يدخل ضمن العهد الذي عهد به الله إلى بني آدم وهم في الدار الأولى ما جاء في سورة الأعراف:﴿ **يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27)** ﴾.

ومعنى الآيات: أن الله ﷻ ينادي يوم القيامة المجرمين من بني آدم ليحملهم على الاعتراف بأنه أوصاهم بعبادته وحده، وحذرهم من عداوة الشيطان الذي كان يزين لهم عبادة الأوثان عندما كانوا في الدنيا ويشجعهم عل تكذيب أنبياء الله ورسله، فأطاعوه، فصاروا إلى نار جهنم.

ثم يذكرهم بأن الشيطان قد أغوى الكثير منهم ليبني على هذا التذكير توبيخهم على عدم استعمال عقولهم ليتبين لهم الحق من الباطل.

قوله تعالى:

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(62)اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(63)﴾

يقال للكافرين في الدار الآخرة وهم في النار: هذه جهنم التي كان ربكم يوعدكم بها على ألسنة رسله إليكم في دنياكم ولكنكم كنتم تكذبونهم وتؤذونهم، وتقولون لهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فها هو الوعيد الذي كنتم تستعجلونه قد

تحقـــق لكـــم؛ والصلي المفهوم من فعل الأمر المسند إليهم (اصلوا) معناه: معاناة الاحـــتراق بالنار، ومقاساة آلامه، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم غيرما مرة في صـــيغ مختلفة، من ذلك قوله ﷻ في سورة الأعلى:﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(11)الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(12)...**﴾؛ وفي سورة الانشقاق:﴿**... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ(10)فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا(11) وَيَصْلَى سَعِيرًا(12)**﴾.

وفي ســـورة الواقعة:﴿ **...وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ(92)فَنُزُلٌ مِـــنْ حَمِيمٍ(93)وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(94)**﴾؛ وفي سورة الصافات:﴿ **...مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِـــنِينَ(162)إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ(163)**﴾؛ وفي سورة مريم:﴿ **ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا(70)**﴾.

والـــباء في ﴿بما كنتم تكفرون﴾ سببية و(ما) مصدرية، يسبك الفعل بعدها بمصدر وتقدير الكلام اصلوها اليوم بسبب كفركم الذي كنتم فيه .

ونظير هاتين الآيتين قوله ﷻ في سورة الطور:﴿ **يـــوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّـــا(13)هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(14)أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ 15 اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(16)**﴾

وفي ســـورة الرحمن﴿ **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ(43)يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ(44)...**﴾.

قوله تعالى:

﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(64)**﴾

ورد في القـــرآن الكـــريم إن الله ﷻ يجمـــع المشركين يوم القيامة ويسألهم: أين شـــركاؤكم الذيـــن كنتم تعبدونهم في الدنيا؟ فينكرون إشراكهم، ويحلفون على

ذلكـــ! كما جاء في سورة الأنعام حيث يقول الله ﷻ: ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُــولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(22)ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23)انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24)** ﴾.

وحينـــئذ يخـــتم الله على أفواههم (بأن يخرسها) ويخلق القدرة على النطق في أيديهم وأرجلهم فتتكلم، وتشهد على أصحابها بما كانوا يعملون من آثام وأعظمها الشرك بالله

وتفســـيرا لهـــذا المعـــنى يقول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن أنس: ((يخاطب العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسكـــ اليوم عليكـــ حسيبا، فيخـــتم الله عـــلى فيه، فيقول لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل!)).

وشـــهادة الأعضـــاء على أصحابها قد ورد ذكرها في غير هذا الموضع من القرآن الكـــريم. قال الله ﷻ في سورة النور: ﴿ **... يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُـــمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(24)** ﴾؛ وفي سورة فصلت: ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(19)حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(20)وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21)** ﴾ .

قوله تعالى:

﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ(65)وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ(66)** ﴾

﴿لو﴾: حرف امتناع لامتناع، أي يمتنع جوابها بسبب امتناع شرطها وشرطها في

الآيـــة الأولى قولـــه ﷻ ﴿نشاء﴾؛ وجوابها قوله ﷻ ﴿طمسنا﴾ أي امتنع طمس أعينهم لعدم مشيئة الله ذلك.

وشرطها في الآية الثانية قوله ﷻ ﴿نشاء﴾، وجوابها قوله ﷻ ﴿مسخنا﴾ أي امتنع مسخهم لعدم مشيئة الله ذلكـــ.

والمعنى: لو تعلقت إرادة الله بطمس عيونهم، ومسخ أجسادهم لوقع ذلك الطمس والمسخ لأنه على كل شيء قدير، ولكنه لم يرد فلم يقع.

وطمس العيون يصدق بمحو خاصية الإبصار فيها مع بقاء مُقَلِها، وهو ما يعبر عنه بالعمى أو العور، كما يصدق بعدم شقوق بين أجفانها أو باستوائها مع الجباه وهو منظر قبيح جدا.

ويقـــول العـــرب: رجل مطموس أو طميس لمن ذهب بصره كما يقولون: طريق مطموسة للطريق التي ذهبت آثار أقدام السائرين عليها.

وفعل (طمس) يتعدى إلى مفعوله بنفسه كما ورد في سورة القمر:﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ...﴾** 37.

ولكنه هنا عدي إلى مفعوله بواسطة حرف الجر (على) الدال على الاستعلاء للإيحاء بتمكن الطمس من أعينهم كما يتمكن الفارس من فرسه إذا استوى على صهوته.

﴿اســـتبقوا﴾: فعل ماض مسند إلى واو الجماعة معناه: سارعوا وابتـــدروا، ومنه قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ 147.

وفعـــل (استبق) يصل إلى مفعوله بواسطة حرف الجر (إلى) ولكنه حذف هنا كما حذف حرف الجر (على) من قول الشاعر:

تـــمرون الديـــار ولم تعو جوا كلامكم علي -إذن- حـــرام

أي تمرون على الديار...

ويصح أن يكون فعل (استبق) مضمنا معنى (ابتدر) الذي يتعدى إلى مفعوله بنفسه.

و﴿أنى﴾ الاستفهامية: تأتي بمعنى متى كقولك: أنى جئت؟ وتأتي بمعنى: كيف كقوله ﷻ ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ البقرة 258. وتأتي بمعنى (من أين) كقوله ﷻ: ﴿ ... يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ آل عمران 37.

وتفسيرها -هنا- بمعنى كيف أو بمعنى من أين أي كيف يبصرون؟ أو من أين لهم أن يبصروا؟ وقد طمس الله أبصارهم، وأخذ منها قوة الإبصار كما جاء في قوله ﷻ **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾** الأنعام47.

و﴿المسخ﴾: تغيير جسم الإنسان بجسم آخر من غير نوعه كمسخه قردا أو خنزيرا أو حجرا.

و﴿المكانة﴾: الحالة التي يكون عليها الإنسان.

و﴿المضي﴾: الذهاب، ويقابله الرجوع

والمعنى لو أراد الله مسخهم لمسخهم على الحالة التي يكونون عليها وصاروا كالتماثيل الثابتة في الأرض لا يستطيعون التوجه إلى المكان الذي يقصدونه ولا يقدرون أيضا على الرجوع إلى المكان الذي انطلقوا منه.

وأصل التركيب (لا يستطيعون مضيا ولا رجوعا) ولكن عدل عن المصدر (رجوعا) إلى الفعل المضارع (يرجعون) مراعاة لرءوس الآي والله أعلم.

وإذا كان في الآيتين تهديد للكفار فإن فيهما تسلية للنبي ﷺ.

قوله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ(67)﴾

﴿التعمير﴾ المفهوم من الفعل (نعمره) إطالة العمر، يقال: عمره الله تعميرًا إذا أطال

عمـــره. ومنه قوله في سورة فاطر:﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ 37 .وفيها أيضا: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ..(11)﴾ وفي ســـورة الـــبقرة: ﴿ يَـــوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ... ﴾ 95.

والمـــدة التي يعمر بها الله ﷻ بدن الإنسان بالحياة تسمى (عمرًا) بضم العين والميم و(عَمْرًا) بفتح العين وسكون الميم.

ومن الأول قوله ﷻ في سورة الأنبياء:﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ ....﴾44.

ومن الثاني قوله ﷻ في سورة الحجر:﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)﴾ و-النكس أو التنكيس- قلب الأعلى إلى الأسفل، أو تغيير الحال الأحسن إلى الحال الأقبح.

ومن الأول قوله ﷻ في سورة الأنبياء:﴿ ...ثم نكسوا على رءوسهم..﴾

ومن الثاني قوله ﷻ في هذه الآية .

و﴿الخلـــق﴾ : مصدر الفعل: خلق والأقرب أن المراد به معناه المصدري أي الخلقة والتكوين .

ويحتمل أن المراد به معنى اسم المفعول كما هو وارد في آيات من القرآن الكريم – أيضا- أي المخلوقات .

ومعنى الآية أن الله ﷻ يخبرنا بأن من يقضي بتطويل عمره من الناس يقلب أحواله من قوة الشباب والكهولة وجمالهما إلى ضعف الهرم والشيخوخة ورذالتهما، كمـــا ورد في سورة الحج:﴿ ...وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ 5.

وعلاقة هذه الآية بالآيتين قبلها أن القادر على تطوير خلقة الإنسان من القوة إلى الضعف، ومن الرشد إلى الخَرَف لا يعجزه طمس الأبصار، ولا مسخ الأجساد، كما لا يعجزه إعادة الحياة إلى الأموات والله أعلم.

﴿أفلا تعقلون؟﴾

جملة استفهامية تحمل معنى التوبيخ لهؤلاء الكافرين الذين لا يريدون أن يفكروا بعقولهم ليفهموا فالهمزة للاستفهام، وهي داخلة على فعل محذوف.

والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، وتقدير الكلام (أترون ذلك فلا تعقلون).

قوله تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (68) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (69)﴾

المناسبة:

في الآيات السابقة ذكر الله ﷻ عنصرين من عناصر الإيمان هما أولا عبادة الله وحده دون سواه ﴿ ...ألاّ تعبدوا الشيطان ...واعبدوني﴾ ثانيا الإيمان باليوم الآخر وبعض ما يقع فيه ﴿...هذه جهنم التي كنتم توعدون...﴾.

ثم ذكر في هاتين الآيتين عنصراً ثالثا هو الوحي المنزل على سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ

شرح الألفاظ:

الضمير (نا) في علمناه يعود إلى الله ﷻ وهو في الاستعمال للجماعة أو الواحد الذي يعظم نفسه.

والضمير المتصل (الهاء) يعود إلى رسول الله ﷺ كما هو معلوم من سياق الكلام.

و﴿الشعر﴾: كلام موزون مقفى قصدا .

ومعنى المقفى أن كل بيت في القصيدة ينتهي بحرف خاص يسمّى القافية، وتنسب القصيدة إلى هذا الحرف الأخير فيها فيقال –مثلاً– قصيدة همزية أو دالية أو ميمية... الخ.

﴿ **وما ينبغي له** ﴾: لا يليق بمقامه الرفيع، ولا يصلح له وحتى إذا أراده فإنه لا يطاوعه؛ فالشعر عبارة عن انفعالات يشعر بها الإنسان في أعماق نفسه فيعبر عنها بكلام موزون ومقفى، يصورها تصويرا دقيقا رائعا، وقد تسمو هذه الانفعالات إلى مستوى الفضيلة، والتوجيه الحسن وقد تهبط إلى دركات الرذيلة وتزيين القبيح.

أما الوحي فهو تشريع من الله لعباده يشمل عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم مما تزكو به نفوسهم ويستقيم تدينهم وتنتظم شئون دنياهم وتطيب به الحياة في أخراهم. وشتان ما بين ما يصدر عن الإنسان من تصورات عابرة، وما يصدر عن الله من حقائق ومنافع ثابتة.

وفي الآية رد على المشركين الذين كانوا يتهمون الرسول ﷺ بأنه شاعر وأن ما يقوله (يعني القرآن) شعر وإعلام بأن قول الشعر لا يليق برسول الله ﷺ .

تنبيه:

كان الرسول ﷺ يجري على لسانه في أحيان قليلة جداً بعض الأبيات من الشعر لغيره يستحسنها فيستشهد بها وهو القائل: الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام . وقد قال ﷺ:(إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً) رواه أبو داود وأحمد.

وكان يعجبه بيت عنترة الذي يقول فيه:

ولقد أبيت على الطوَى وأظله حتى أنال به كريم المطعم

وينشد بيت عبد الله بن رواحه:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال ﷺ عن بيت لبيد المشهور: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وكان ينشد بيت طرفة:

ستبدي لكـ الأيام ما كنت جاهلا ويأتيكـ بالأخبار من لم تزود

و كان نطقه به أحيانا لا يتفق مع قراءة الشعر كما جاء في بعض الروايات.

وكان يعجبه أيضا أن يسمع الشعر البليغ النظيف ويستزيد منه.

روي أن بعض الصحابة أنشده مائة بيت من الشعر لأمية بن أبي الصلت فكان يقول عقب كل بيت (هيه) أي زد.

ومن أمثلة إعجابه بالشعر وتأثره به أن خلع بردته على الشاعر المشهور: كعب بن زهير بعد أن أسمعه تلك القصيدة العصماء في مدحه ﷺ معتذراً عما بدا منه أيام الجاهلية ومنها:

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وقد روي عنه –أيضا– أنه أصيب في إحدى الغزوات في أصبعه فدميت فقال بالمناسبة:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله مالقيت

وذلك على سبيل الاتفاق لا القصد .

وغني عن البيان أن تمثله ﷺبشعر غيره، وارتياحه لسماعه، وما جرى على لسانه اتفاقاً لا يسوغ الحكم عليه بأنه شاعر.

وقد ورد في الحديث الشريف أنه ﷺقال: (لأن يمتلئ جوف رجل قيحا يريه[1] خير له من أن يمتلئ شعراً) رواه الشيخان.

---

[1] – أي: يفسده.

ولكن ذلك كان في الشعر الساقط الذي لا يتورع قائله عن الكذب، ومدح من لا يستحق المدح، وذم من لا يستحق الذم ووصف النساء والخمر، والإغراء بالفسوق والمجون والتملق والفخر الزائف والتكسب بالشعر.

ودليل ذلك أن الله –عز وجل– ذم الشعراء في القرآن الكريم، ولكنه استثنى منهم الملتزمين بالحق البعيدين عن الباطل وأهله.

قال ﷻ في سورة الشعراء:﴿ **...والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾.

ولهذا كان ﷺ يحث حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة على قول الشعر ليردوا على شعراء المشركين، ويظهروا محاسن الإسلام، ومساوئ الكفر.

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: (أهجهم (أو هاجهم) وجبريل معك، أو قال: وروح القدس معك).

وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: (قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل!!). فقال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضح النبل! أو: اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو اشد عليهم من رشق النبل).

فاعتبر النبي ﷺ قول الشعر في تأييد الحق ومحاربة الباطل نوعاً من الجهاد.

وهل كان صناديد قريش يعتقدون في قرارة نفوسهم أن رسول الله ﷺ شاعر؟ كلاّ! فهناك شواهد في السيرة النبوية تؤيد هذا النفي منها: ما رواه محمد بن اسحاق في كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت بأن عتبة بن ربيعة –وكان سيداً– قال يوما –وهو جالس في نادي قريش– (ورسول الله ﷺ جالس في المسجد

وحده): يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً، لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ (وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يكثرون) فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه، فكلمه، فقام عتبة إليه حتى جلس إلى رسول الله ﷺفقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: (قل يا أبا الوليد أسمع). قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه (أو كما قال له) حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال:(أفرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال:(فاستمع مني)، قال: أفعل، قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون...). ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولا والله ما

سمعـــت مـــثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الـــذي سمعت نبأ! فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

ولكن هل أسلم عتبه وأصحابه؟ اللهم لا.

وذلك ما يبرهن على عنادهم، وعلى أن اتهامهم لرسول الله ﷺ بالشاعرية محض افتراء! يقصدون به تضليل العوام من الناس بأن ما يقوله محمد لا يختلف عما يقوله الشعراء تعبيرا عن أهوائهم، ومن ثم فإن ما يقوله ليس من عند الله كما يزعم فهـــو كذاب لا يصح اتباعه إنما الجدير بالاتباع كبراء القوم الذين يحافظون على مـــيراث الآبـــاء والأجداد، وبهذا التضليل يضمنون زعامتهم لقومهم، وتسلم لهم امتـــيازاتهم ومكتسباتهم التي هدّدها محمد بما جاءهم به من عدالة ومساواة وحرية ومعتقدات صحيحة.

وتزيـــيفا لمقولة هؤلاء المشركين نفى الله ﷻ عن نفسه أنه علم عبده محمداً الشعر لأنه لا يليق به وإنما علمه القرآن الذي هو وحي من الله لعباده ليبين لهم ما هم في حاجة إليه، ويخرجهم به من الظلمات إلى النور.

وقـــد يتساءل اللبيب عن الشُّبَه التي التقطها أولئك المعاندون ليصرفوا بها البسطاء عن اتباع محمد ﷺ بدعوى أنه شاعر وأنه أيضا كاهن، وأنه ساحر...

والجواب –بخصوص الشعر– هو تلك الفواصل الموجودة في أواخر الآيات القرآنية الـــتي تشبه القوافي في الأبيات الشعرية، وهم يتناسون الشرط الأساسي في الشعر

وهـــو أن يكـــون موزوناً بحيث تتعادل –تقريبا- ألفاظ الشطر الأخير من البيت الشعري مع ألفاظ الشطر الأول وهذا ليس ملتزماً به في الآيات القرآنية.

وبخصـــوص الكهانة أن محمداً يخبر الناس أحيانا بما يقع في المستقبل فيقع كما قال. ومن ثم فهو كاهن لا يختلف عن الكهان المعروفين لديهم، والذين يلجئون إليهم في كشف المغيبات .

وبخصـــوص الســـحر يقولـــون: إن محمداً يفرق بين الزوج وزوجه، والأب وابنه والصـــديق وصديقه كما يفعل الساحر تماماً، وهم يشيرون بذلك إلى إسلام أحد الطرفين، وبقاء الطرف الآخر على كفره.

﴿إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين﴾

﴿إن﴾ نافية، جاءت بعدها ﴿إلاّ﴾ فأدت الجملة معنى الحصر أي ما علمه الله ﷻ لنبيه ﷺ محصور في كونه ذكراً وقرآنا وليس شيئا آخر.

وسمـــي الوحي ذكراً باعتبار أنه يذكر الناس ويعظهم وينبهم إلى ما فيه صلاحهم وسمي قرآنا باعتبار أنه يقرآ.

وصيغة ﴿مبين﴾ اسم فاعل على وزن مُفعِل إما من أبان اللازم بمعنى بان وظهر أي هو واضح في معانيه ودلالاته.

وإما من (أبان) المتعدي إلى المفعول أي هو يبين للناس ويوضح لهم ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم.

﴿لتنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين﴾.

قرئ ﴿لتنذر﴾ بتاء الخطاب على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وهي قراءة الإمام نافع؛ وقرئ بياء الغائب، وهي قراءة الإمام عاصم.

والذي يقوم بالإنذار هو رسول الله ﷺ.

واللام: لام التعليل؛ فقد عللت أي بينت العلة والسبب في إنزال القرآن وهو الإنذار.
﴿مـــن كان حياً﴾: كان –هنا– مجردة من الزمان. والحياة المفهومة من (حياً) هي في معناها العام استقرار الحياة في الأبدان، وضدها موت الأبدان والمراد بها –هنا– والله أعـــلم حياة القلوب لأن الذين يتمتعون بحياة قلوبهم هم المنتفعون بالإنذار من حيث إنهم يفتحون قلوبهم لتدبر ما يسمعون فيقبلون ما هو حق، ويرفضون ما هو بـــاطل بخلاف أموات القلوب الذين لا يتأثرون بما يسمعون، وإذا سمعوا لا يعقلون فهم كما وصفهم الله في القرآن الكريم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾البقرة171 والدليل على أن المراد بالحياة في الآية الحياة القلبية أنه ﷻ جعل قوله ﴿ ويحق القول على الكافرين﴾، في مقابلة قوله: ﴿ مَن كان حياً ﴾ كأنه قال: لتنذر من كان حياً (وهم المؤمنون المدركون) ويحق القول على من كان ميتا (وهم الكافرون الذين لا يستجيبون)

ووصف المؤمنين بأنهم أحياء أي حياة روحية فكرية (لأنهم يتأملون فيما يسمعون) ووصف الكافرين بأنهم أموات أي موتا روحيا وفكريا (لأنهم لا يتدبرون ما يقال لهم) معلوم في القرآن.

ومـــن ذلك قوله ﷻ في سورة الأنعام:﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ... ﴾.123.

وفي ســـورة فاطـــر:﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(19)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20)، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(21)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ...﴾.

والمـــراد بالقول الذي يحق على الكافرين هو المذكور في الآية الكريمة:﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْـــنَا كُـــلَّ نَفْـــسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾السجدة. 13

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(70)وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(71)وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(72)﴾

المناسبـــة:

بعد أن ذكر الله سبحانه بعض عناصر الإيمان، وهي الوحدانية وتحقيق الوعيد الالهي للكافـــرين في اليوم الآخر، وتأكيد الرسالة الالهية لسيدنا محمد ﷺ شرع في تذكير قريش بالنعم التي أغدقها عليهم، في جملة بني آدم.

التفسيـــر:

﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون؟ ﴾.

الهمزة الاستفهامية داخلة على جملة منفية محذوفة، والتقدير: ﴿ألم يلاحظوا ويروا؟﴾.

والاستفهام –هنا– إنكاري وتعجيبي.

ومفعول (يرى) سدت مسده الجملة الفعلية المنسبكة بالمصدر، والتقدير: أو لم يروا خلْقَنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما، وقوله –تعالى– (لهم) اللام للتمليك، أو للعلة أي خلـــق الله الأنعـــام من أجلهم لينتفعوا بها، ويتصرفوا فيها كيف شاءوا في الحدود الشرعية وذلك كقوله ﷻ في سورة البقرة :﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ 28.

وقولـــه ﷻ: ﴿مـــا عملـــت أيدينا﴾ :مفعول (عمل) ضمير محذوف أي عملته. و(أيدينا) فاعل مؤخر عن المفعول المقدم المحذوف، ومضاف ومضاف إليه .

وإسناد العمل إلى الأيدي يفهم منه تفرد الله ﷻ بخلق الأنعام بحيث لم يشاركه أحد لا في أصولها الأولى، ولا في أنسالها. وهو من باب التوكيد، كقوله في خلق آدم

عليه السلام ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ ﴾.ص174.

و﴿الأنعام﴾ هي الإبل والبقر والغنم والمعز، وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام:﴿ **وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(142)ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(143)وَمِنْ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟144...** ﴾

وقد خص الله ﷻ الأنعام بالذكر لأن فيها أعظم المنافع للناس، وإلا فإنه قد خلق لهم غيرها من الحيوانات، كالخيل والبغال والحمير، وبعض الحيوانات الاهلية والوحشية والبحرية، قال الله ﷻ في سورة النحل﴿ **...وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8)** ﴾.

وقوله ﷻ ﴿فهم لها مالكون﴾.

الفاء: تفريعية؛ فقد فرّعت ملكيتهم للأنعام على خلقها لهم. وقدم الجار والمجرور (لها) على العامل وهو اسم الفاعل (مالكون) لرعاية الفواصل (مالكون-يأكلون-تشكرون) إلى آخره. وللتعجيل-أيضا- باستحضار ما يعود إليه الضمير (ها) وهو: الأنعام

ومعنى (مالكون لها) أنهم يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه.

وقوله-تعالى- ﴿وذللناها لهم﴾ أي سخرناها لهم وطوعناها بأن جعلنا في طبعها الانقياد لهم، ولولا ذلك التذليل لاستعصى عليهم قيادها.

ومن عجائب هذا التذليل الإلهي لهذا النوع من الحيوانات أن صبياً صغيراً (بله رجلا كبيرا) يقود جملا ضخما أو يسوقه أو ينهضه أو ينيخه دون تمنع منه! وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

وتضربه الوليدة بالهراوة فلا غيرٌ لديه ولا نكير.

وقوله ﷻ: ﴿ فمنها ركوبهم، ومنها يأكلون﴾

ركوب: على وزن فَعُول بمعنى مركوب، والفاء-أيضا- تفريعية؛ فقد فرعت جَعْل بعض الأنعام مركوبا، وجَعْل لحومها كلها مادة غذائية على تذليلها لهم.

وفي ذلك من لطف الله بعباده ما لا يخفى على ذي حجر[1]

قوله ﷻ:﴿ ولهم فيها منافع ومشارب﴾.

أي لهم في الأنعام-أيضا- (زيادة على امتطاء ظهورها وأكل لحومها منافع أخرى لهم كالانتفاع بوبرها وصوفها وشعرها وجلودها.

ولهم فيها-أيضا-مشارب (جمع مشرب، وهو مصدر ميمي بمعنى شرب) وذلك إشارة إلى ما في أخلافها وضروعها من حليب وما يتولد منه من زبد وسمن وجبن و إقط.

ونظير هذه الآيات قوله ﷻ في سورة النحل:﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7)**﴾.

وفي السورة نفسها -أيضا-: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(80)**﴾.

﴿أفلا تشكرون﴾

ختم الله ﷻ تذكير مشركي قريش بتلك النعم الوافرة بتوبيخهم على عدم شكرها ومعنى الجملة: أيشاهدون هذه النعم العظيمة فلا يشكرون المتفضل بها عليهم، بأن يعبدوه وحده دون سواه وهم الذين قال الله فيهم:﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار: جهنم يصلونها وبئس القرار، وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله، قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار**﴾ 20-22.

---

[1] - ذي حجر: صاحب عقل. — [2] - الأخلاف للنوق مثل الضروع للغنم.

عبـــــــرة:

والعـــبرة التي ينبغي للمؤمن أن يستخلصها من هذه الآيات أنه كلما ملّكه الله حـــيوانا يركبه بيسر، ويحمل عليه أثقاله، ويقطع به مسافات... وكلما شرب جرعة من لبن، أو أكل قطعة من لحم أو جبن أو سمن أو زبدة أو إقط. وكلما انتفع بصوف أو وبر أو شعر أحس بفضل الله عليه في كل ذلك فيمتلئ قلبه بتوحيده في ربوبيـــته وألوهيته، ويلهج لسانه بشكره والثناء عليه، وتنطلق جوارحه في طاعته، وتتورع عن محارمه مما يزيد في اتساع النعم، ويحفظ من النقم.

قـــال الله ﷻ في ســـورة إبراهيم: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(7)**﴾.

قوله تعالى:

﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ(73) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ(74) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(75)**﴾.

المناسبة بين هذه الآيات والآيات السابقة:

في الآيـــات السابقة دلائل واضحة على وحدانية الله وقدرته ورأفته بعباده، ومنهم مشركو العرب المعنيون بضمائر الغيبة في: اتخذوا –ينصرون– نصرهم

وفي الآيات اللاحقة تعجيب من حالهم من حيث إنهم يرون رأي العين آثار قدرته ﷻ ووحدانيـــته ورحمـــته فـــيما خلـــق لهم من أنعام ملكهم إياها، وذللها لهم، فاســـتطاعوا أن يركبوها ويحملوا عليها أثقالهم، ويأكلوا من لحومها، ويشربوا من ألـــبانها، ويكتسوا من أصوافها و أوبارها وأشعارها ومع ذلك يُعرضون عن الخالق العظيم الذي رزقهم ونعّمهم ويقبلون على أصنام جعلوها آلهة يعبدونها من دون الله

أو مـــع الله، وهي لم تخلق شيئاً، و لم تجلب لهم رزقا و لم تسق لهم نفعاً، و لم تدفع عـــنهم ضراً، كما جاء في قوله ﷻ:﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِـــيكُمْ هَـــلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(40)**﴾ سورة الروم.

وفي قوله ﷻ: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(3)** ﴾ سورة فاطر.

﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون**﴾

أي جعلـــوا لأنفسهم آلهة صنعوها من الأحجار والأخشاب وغيرها وعكفوا عـــلى عـــبادتها، راجين منها أن تنصرهم في الدنيا بان ترد عنهم البلاء، وتدفع عنهم المكـــاره وتنصرهم أيضا في الآخرة (إن كانت هناك آخرة في زعمهم فهم لا يؤمنون بها) وذلك بان تنجيهم من عذاب الجحيم. ودفعا لهذا الوهم الذي استولى على قلوبهم يأتي الرد الإلهي: ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ .

﴿**وهم لهم جند محضرون**﴾

ضـــمير (هم) يعود إلى المشركين، وضمير الغائب في (لهم) يعود إلى الآلهة أي والمشركون كالجنود الحاضرين دائما للدفاع عن آلهتهم، يغضبون لها، ويؤذون كل من يعتدي عليها بقول أو فعل...

ويجـــوز أن يكون الضمير (هم) عائداً إلى الآلهة المدعاة والضمير في (لهم) يعود إلى المشركين أي والآلهة التي كانوا يقدسونها في الدنيا يحضرهم الله ﷻ مع عابديها في الـــدار الآخرة، ويدخلهم معاً إلى نار جهنم ليروا أن آلهتهم لا تقدر عل نصرهم، وزحزحتهم عن النار وحينئذ يتبين لهم سخف اعتقادهم، وانحطاط عقولهم وذلك على حد قوله ﷻ في سورة التحريم:﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ**

نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... ﴾ 6 والله أعلم بمراده.

هـذا إلى أننا نقرأ في القرآن الكريم أن المعبودين يتبرءون من عابديهم يوم العرض كما جاء في سورة يونس:﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ(29)هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(30)** ﴾.

﴿فلا يحزنك قولهم﴾

قرئ (يُحزِن) بضم الياء وكسر الزاي من (أحزن) الرباعي وهي قراءة نافع رحمه الله. وقرئ (يَحزُن) بفتح الياء وضم الزاي من (حزَن) الثلاثي، وهي قراءة عاصم رحمه الله، ومعناهما واحد، وهو إدخال الحزن والأسى على القلب.

وكاف الخطاب في (يحزنك) للنبي ﷺ وضمير الغائب في (قولهم) لمشركي قريش.

والمعنى: إن الله –تبارك وتعالى– نهى نبيه ﷺ أن يتأثر بأقوال المشركين فيه، وفي القرآن الذي أوحاه إليه حتى لا ينال الحزن من نشاطه واستمراره في الدعوة إلى الدين المعتد به عند الله وهو الإسلام .

ومن أقوال المشركين في رسول الله ﷺ إنه شاعر –كاهن ساحر– مجنون...

وفي القرآن إنه شعر –كهانة–سحر–أضغات أحلام... وكانوا ينكرون البعث والنشور ويقولون ما حكاه القرآن عنهم:﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ...** ﴾سورة الجاثية23. و﴿ **إن هي إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمنشرين...** ﴾ الدخان 33.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من قومه ونظيرها قول الله ﷻ في سورة لقمان: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(23)**﴾ .

﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾

جملة تعليلية علّل الله بها نهيه عن الحزن الذي يسببه له قولهم فيه وفي القرآن، وذلك بإخباره أنه يعلم ما يخفيه أعداؤه في صدورهم وما يضمرونه، والذي يترتب على علمه بحالهم محاسبتهم ثم عقابهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم؛ وسلامة القلب تعني طهارته من الشرك والكفر والنفاق.

ومما كان المشركون يخفونه في داخل نفوسهم أن محمداً ﷺ على حق، وانه رسول الله صدقا ولكنهم يظهرون للناس خلاف ما يبطنون، فيجابهونه بالتكذيب والإعراض.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (76) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (77) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (78) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (79)﴾

المناسبة:

بعد أن أنكر الله ﷻ على المشركين اتخاذ آلهة من دونه، يرجون نصرهم، وشفاعتهم لهم عند الله في اليوم الآخر (إن كان هناك يوم آخر وجنة ونار في زعمهم) وبعد أن نهى نبيه عن التأثر بأقوالهم فيه وفي القرآن شرع في دحض الشبهة التي جعلت المشركين يستبعدون بعث الأموات وإحياءهم مرة أخرى .

سبب النزول:

جاء في الروايات أن أُمَية بن خلف توجه إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم إنسان رميم، ففتّه وذراه في الريح وقال يا محمد أتزعم أن الله يحيي هذا بعدما أرمّ؟ (أي

بلى) فقال له النبي ﷺ نعم يميتك الله، ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم.

ويروي هذا القول –أيضا– عن العاص بن وائل وعن أبي جهل.

ويقول العلماء المحققون: لعل هؤلاء الثلاثة كان الواحد منهم يجيء إلى النبي ﷺ في فترات مختلفة، ويطرح عليه هذا السؤال فنزلت هذه الآيات.

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين؟ ﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاري، وفيه معنى التعجيب من قول ذلك الخصيم المبين.

والـــواو التي بعد الهمزة عاطفة الجملة التي بعدها على جملة محذوفة قبلها والتقدير: أعمي و لم ير؟ والرؤية –هنا– المفهومة من (ير) قلبية تعنى العلم والإدراك.

والإنسان يراد به في المقام الأول أحد اؤلئك الذين سألوا النبي ﷺ عن إحياء العظم الرميم.

ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيعم اللفظ كل إنسان ينكر البعث، ونحـــن نقرأ في غير ما آية أن إنكار البعث هو معتقد كل مشركي العرب كما هو معتقد كل الملاحدة في العالم.

ونظير الآية قوله في سورة مريم﴿**وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا(66)**﴾ وفي سورة القيامة: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(3)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(4)**﴾.

والنطفة: الماء المهين الذي يتخلق منه الإنسان في رحم أمه، كما قال ﷻ في سورة المرســـلات:﴿ **أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(20)فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(21)، إِلَى قَـــدَرٍ مَعْلُومٍ(22)فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(23)**﴾؛ وفي سورة الإنسان:﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(2)** ﴾.

و﴿خصيم ﴾: شديد الخصومة والجدال، واللفظ من صيغ المبالغة.

و﴿مبين﴾: من أبان (الرباعي) بمعنى: بان (الثلاثي) أي ظهر أي هو بين الخصومة لا يخفيها فهو مشهور بها .

و﴿إذا﴾: فجائية، تفيد أن خصومة هذا الإنسان لربه لم تكن متوقعة، كيف لا وقد خلق من مادة حقيرة، ولكنها وقعت على خلاف ما كان يجب عليه لو تفكر في أصله المتكون منه.

ومعنى الآية: أعمي هذا الإنسان وغفل عن المادة التي خلقه ربه منها فأصبح –بعد بلوغ أشده– يخاصم خالقه علانية، وينكر قدرته على إعادة الحياة إليه مرة أخرى؟

﴿ وضرب لنا مثلا، ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾

المثل: تشبيه حالة بحالة، وضرب المثل إيجاده والنطق به.

نسي خلقه: غفل عن نشأته الأولى من النطفة المهينة. والاستفهام في ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ إنكاري .

والرميم:البالي الذي مضت عليه السنون تحت التراب مأخوذ من رمّ العظم أو أرمّ إذا بلي.

وجملة: ﴿ قال: من يحيي العظام... ﴾ بيان لجملة: ﴿ضرب لنا مثلاً...﴾ .

ومعنى الآية: أن هذا الكافر ضرب لله مثلا ناسيا المادة التي خلقه منها، وتطويره في بطن أمه حتى اكتملت خلقته فولدته أمه ضعيفا بدنيا وعقليا وما زالت عناية الله ترعاه حتى استوى رجلا قويا فغفل عن مظاهر قدرة الله فيه فأنكر أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى، قايسا قدرة الخالق التي لا حد لها على قدرة المخلوق المحدودة الضعيفة، مما جعله يستبعد أن يبعث الله الحياة في العظام البالية المتفتتة.

وقد نهى الله عباده أن يشبهوه بغيره، وأن يضربوا له الأمثال حيث قال في سورة النحل: ﴿... فلا تضربوا لله الأمثال ... ﴾

وذكّـــرهم بنشأتهم الأولى كي يتعظوا، فقال الله ﷻ : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾.

هـــذه الجملة جواب عن الجملة الاستفهامية قبلها ﴿ من يحيي العظام وهي رميم﴾ تتضـــمن الإعلام بأن الذي أنشأ العظام أول مرة قادر على إنشائها ثاني مرة وهو أهون عليه؛ والله ﷻ خبير بكل شيء يخلقه لا تخفى عليه منه خافية.

ولفـــظ ﴿خلْـــق﴾ قد يؤدي معناه المصدري فيكون بمعنى الإنشاء والتكوين، وقد يؤدي معنى اسم المفعول فيكون بمعنى: مخلوق. وله نظائر في القرآن الكريم.

ومثل الآية قوله في سورة الواقعة: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ(62)**﴾ . ونشأتهم الأولى تتمثل في نشأة أبيهم آدم من التراب ونشأة أمهم حواء من آدم، ونشأتهم هم من النُّطَف .

﴿ الذي جعل لكم من الشجر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾

هذه الجملة بدل من جملة: ﴿الذي أنشأها أول مرة﴾

والمقصود من الشجر الأخضر الطراوة التي تدل على سريان الماء في أغصانه.

و﴿توقدون﴾ مضارع أوقد مسند إلى واو الجماعة، يقال أوقد النار إذا أشعلها.و﴿إذا﴾ فجائـــية تفيد أن إيقاد النار في شجر طري يسري الماء في أغصانه غير متوقع لأن الماء والنار متناقضان ولكن قدرة الله لا يقف في طريقها هذا التناقض فقد أودع في الأشجار قابلية الاحتراق وبقدر تدرجها في يبسها تكون سرعة الاشتعال، على أن هناك نوعين من الأشجار يسرع في قضبانها الاشتعال ولو كانت خضراء وهمـــا المرخ والعفار الموجودان في جزيرة العرب بحيث إذا حك قضيب المرخ على قضيب العفار اتقدت النار، وسرت فيما حولها من حطب.

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم (في كل شجر نار، واســـتَـــمجَد المرخ والعفار)

ومن مظاهر قدرة الله ﷻ وحكمته أنه يخرج الشيء من ضده في غير الأشجار كما قال أحد الشعراء:

جمع النقيضين من أسرار قدرته ... هذا السحاب به ماء به نار

وصدق من قال: **وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد.**

قوله تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (80)﴾

الهمزة للاستفهام الذي ضُمِّن معنى الإنكار عليهم، والتعجيب من أقوالهم وأحوالهم. والواو عطفت الجمل التي بعدها على الجمل التي قبلها .

والتقدير: أليس الذي أنشأ العظام أول مرة، وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا...وليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟.

وفي هذه الآيات الثلاث ترق في الاستدلال على قدرة الله تعالى؛ فالاستدلال الأول منبعث من الإنسان نفسه (الذي أنشأ عظامه أول مرة قادر على إحيائها ثاني مرة). والاستدلال الثاني ناشئ مما يراه الإنسان حوله (من قدر على جعل خاصية الاحتراق في الشجر الأخضر لا يعجز عن إحياء الإنسان بعد موته).

والاستدلال الثالث مستمد من المحيط الواسع جداً جداً (الذي قدر على خلق الأكوان العظمية من سماوات وأرضين ومن فيهما وما فيهما من عجائب كيف يعجز عن إعادة خلق الناس، للحساب ثم الجزاء.

واسم ليس هو الاسم الموصول وصلته (الذي خلق...) وخبرها كلمة (قادر) المجرورة لفظا بالياء الزائدة للتوكيد، المنصوبة تقديرا.

والمصدر المسبوك من الفعل المضارع المنصوب بعد (أن) مجرور بعلى، وتقدير الكلام أوليس الذي خلق السماوات والأرض قادرا على خلق مثلهم؟ والمراد

بـــ(مثلهم) هم ومن يماثلهم...

ونظـــير الآية قوله ﷻ في سورة غافر :﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الـــنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(57)﴾، وفي سورة الأحقاف: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّـــهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(33) ﴾.

و(الخلاق) صيغة من صيغ المبالغة أي كثير الخلق للأشياء.

و (العليم) كذلك من صيغ المبالغة أي هو واسع العلم بما يخلق من حيث تراكيبها وأحوالها.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(81)﴾

﴿أمره﴾: شأنه في إيجاد الأشياء

وجملـــة ﴿إذا أراد شيئا ﴾ معترضة بين المبتدأ وخبره الذي هو المصدر المسبوك من الفعل المضارع المنصوب بـــ(أن) (أن يقول) وتقدير الكلام:إنما أمره قوله للشيء كن.

و﴿كن﴾: فعل أمر مصوغ من (كان) التامة المكتفية بمرفوعها.

وجملة (يكون) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فهو يكون.

وبمـــا أن الآية مصدّرة بـــ(إنما) فهي تفيد الحصر أو القصر أي أمر الله في موضوع الخلق والتكوين قاصر على تعلق إرادته بإيجاد شيء مّا فيوجد بدون تعطّل أو على قوله كن فيكون بدون تأخير، وفي هذا المعنى يقول أحد الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له: كن -قولة- فيكون.

ومن ثمَّ فإن إحياء الله الموتى لا يحتاج إلى أقوال متكررة أو علاجات شاقة.

فالآية تمثيل لسرعة نفوذ قدرته فيما يريده ونظير الآية قوله ﷻ في سورة النحل ﴿ **إنما قولنا لشيء –إذا أردناه– أن نقول له: كن، فيكون** ﴾.40

قوله تعالى:

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(82)﴾

الفاء: جزائية أي حين علمت جراءة أولئك المشركين على ربهم بإنكارهم قدرته على إحياء الأموات (وذلك وصف له بالعجز) فتقديسا له، وتنزيها له عما يقوله الجاهلون فكلمة (سبحان) علم على تنزيه الله وتقديسه وتحمل أيضا معنى التعجب أو التعجيب.

وأضيفت كلمة (سبحان) إلى الاسم الموصول وصلته (الذي بيده ملكوت كل شيء) لتوضيح استحقاقه ﷻ للتنزيه من حيث إن بيده ملكوت كل شيء.

والملكوت على وزن (فعلوت) بزيادة الواو والتاء مبالغة في الملك أي الملك الواسع العظيم؛ وقد وردت في اللغة العربية كلمات بهذا الوزن، قالوا: رحموت ورهبوت وجبروت.

ومن أقوال العرب الشبيهة بالأمثال قولهم: رهبوت خير من رحموت أي لَأَن تكون قويا يرهبك الناس ويحترمونك خير لك من أن تكون ضعيفا ذليلا تستجلب الرحمة والشفقة منهم.

وإذا كان الله ﷻ يملك كل شيء فكيف يصير مملوكه شريكا له في ملكه يستحق العبادة معه أو دونه؟.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة المؤمنون: ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟** ﴾ 89.

وفي أول سورة الملك: ﴿ تبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير ﴾.

وقد ضرب الله الأمثال لهذه الحقيقة في القرآن الكريم لترسيخها في أذهان الناس.

مـــن ذلك قوله ﷻ في سورة الروم: ﴿ **ضرب لكم مثلا من أنفسكم؛ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون** ﴾27.

﴿ **وإليه تُرجعون**﴾

﴿إليه﴾: جار ومجرور، قدما على عاملهما للاهتمام بالضمير العائد إلى اسم الجلالة (أي إليه لا إلى غيره) والأصل ترجعون إليه، ولمراعاة الفواصل أيضا

والجملة تؤكد إعادة الخلق إلى الخالق بإحيائهم بعد إماتتهم، وبسوقهم إلى المحشر في يوم القيامة لمحاسبتهم ثم مجازاتهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فريق إلى الجنة حيث يلقـــون رضوان الله، وينعمون بما أعده لهم، جعلنا الله من أهلها؛ وفريق إلى النار حيث ينتظرهم سخط الله ويعانون ما هيأه لهم من عذاب، أعاذنا الله منه.

ونظـــير الآيـــة قولـــه ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿**كل نفس ذائقة الموت، ثم إلينا ترجعون** ﴾.57

انتهى ما قصدت إليه من تقريب معاني هذه السورة الكريمة التي يردد الناس تلاوتها في عدة مناسبات.

وان أصـــبت فلله المنة والحمد، وإن أخطأت فمن صفاته –تعالى– الرحمة والعفـــو، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكان الفراغ من هذا التفسير خلال شهر محرم من سنة 1426 هجرية.

أهم المراجع

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي
- تفسير الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي
- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي
- تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور
- تفسير أحمد مصطفى المراغي
- روح المعاني لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي
- التفسير الكبير للفخر الرازي
- الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهري
- الكشاف لمحمود الزمخشري
- تفسير الجلالين بحاشية الصاوي عليهما
- في ظلال القرآن لسيد قطب
- أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي
- تيسير التفسير للشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لـــوهبة الزحيلي
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري
- مجالس التذكير للشيخ عبد الحميد بن باديس
- كتب الحديث الستة والموطأ ومسند الإمام أحمد
- المعجم الوسيط ولسان العرب والصحاح والقاموس المحيط
- معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني

- المحتويات -

المقدمـــــة

- فضل سورة يـــس، وحكمة قراءتها على المحتضرين 04
- حكم قراءة القرآن أو جزء منه بأجرة 05
- ما السر في افتتاح بعض السور بحروف مقطعة؟ 05
- ما دلالة القسم بالقرآن على رسالة خاتم النبيئين والمرسلين 06
- هل كان الرسول ﷺ يشك في رسالته الإلهية للناس حتى تستوجب تأكيدها له؟ 07
- ما المقصود من بعثة الرسول ﷺ ؟ 10
- هل كانت رسالتهﷺ خاصة بالقوم الذين عاصروه فقط؟ 11
- ما المراد بالقول الذي حق على الكافرين؟ 11
- ما هو وجه الشبه بين المستكبرين عن قبول الحق والذين وضعت الأغلال في أعناقهم؟ والذين حصروا بين سد أمامهم وسد خلفهم، وأغشيت عيونهم؟ 13
- نموذج من القوم الذين جحدوا الحق بألسنتهم واستيقنوه في قلوبهم 14
- من هم المنتفعون بالإنذار الإلهي للبشر؟ 17
- محاسبة الناس على ما قدموه من أعمال في الدنيا وما خلفوه من آثار يجازون عليها؟ 18
- ما هي المعاني التي يحتملها لفظ "إمام" وما المراد به في هذه السورة؟ 22
- ضرب مثل لكفار قريش بأصحاب القرية الذين عصوا رسل الله إليهم 12
- ماذا صنع أصحاب القرية بالرجل الصالح الذي جاءهم مسرعاً لينصحهم باتباع الرسل 35
- كيف كان مقامه عند الله؟ 36
- كيف كان مصير قومه؟ 37
- استهزاء العباد برسلهم يستدعي الحسرة عليهم 39
- الذين استأصلهم الله ﷻ من الدنيا لا يعودون إليها 42
- جميع البشر يرجعون إلى ربهم في الدار الآخرة 43
- آيات الله في الأرض الدالة على قدرته وحكمته ورأفته بعباده 44
- نظام الزوجية البديع في الإنسان والحيوان والكون 47
- آية سلخ النهار من الليل 48

- آية مسير الشمس والقمر في فلكيهما 50
- آية حمل الناس في الفلك بحراً، وحملهم على مثلها بحرا وبراً 55
- إعراض المشركين عن آيات الله ﷻ 58
- تحجج المشركين في رفضهم الإنفاق على المحاويج بعدم مشيئة الله ذلك 60
- استعجال المشركين لتحقيق وعيد الله بقيام الساعة 63
- النفخ في الصور وما يعقبه ... 66
- الله لا يظلم أحداً من خلقه، والجزاء على حسب العمل 70
- تمتع المتقين في جنة النعيم 70
- دعوة المجرمين إلى الخروج من صفوف المؤمنين يوم العرض 73
- تذكير بني آدم في الدار الآخرة بعهد الله إليهم حينما كانوا في دنياهم. وتوبيخهم على عدم استعمال عقولهم ليدركوا إضلال الشيطان إياهم 74
- ما يقال لمنكري العذاب الإلهي حينما يشاهدون جهنم 75
- الختم على الأفواه، وإنطاق الجوارح الأخرى لتشهد على أصحابها. 76
- تهديد الكفرة بطمس عيونهم، ومسخ أجسادهم. 77
- تنكيس خلقة المعمرين الذين يردون إلى أرذل العمر دليل واضح على أن الله قادر على الطمس والمسخ. 79
- الرد الإلهي على المشركين الذين اتهموا نبيه ﷺ بأن ما يقرؤه عليهم من قبيل الشعر 81
- فضل الله ﷻ على عباده بتسخير الأنعام لهم 89
- النعي على الوثنيين الذين اتخذوا من دون الله آلهة لتنصرهم 92
- تذكير الإنسان بأن الذي خلقه أول مرة من نطفة قذرة قادر على إحيائه مرة أخرى بالأولى والأدلة الحسية على ذلك 95
- تنزيه الله ﷻ عن أي نقص في قدرته المسيطرة على الملكوت، وتأكيد رجعه البشر إليه والوقوف بين يديه في يوم الحساب 101